-3-

القبيلة، والمرأة، والشرف في عصر العولمة

بعد رحلتي الطويلة عبر المحيط الأطلسي في الطريق إلى الدوحة، ركبت طائرة الخطوط الجوية البريطانية من لندن التي احتشدت بمسافرين تدل ملامحهم وأزياؤهم على أنهم من الأوروبيين. كنت أسافر على درجة رجال الأعمال، وأشاهد أحدث الأفلام الأمريكية على شاشة أمامي، وأتناول وجبة طعام بارد، وأشرب الشاي. ومع اقتراب الصورة الصغيرة لطائرتنا كما بدت على الشاشة من شبه الجزيرة العربية ببطء، تغيرت طبوغرافيا الأرض تحتنا إلى حد مثير. كانت الشمس تغرب، وأمكنني أن أشاهد من النافذة صحراء شاسعة تمتد متموجة حتى الأفق. ثم أعلن قائد الطائرة أننا سنصل إلى وجهتنا قريبا، بعد التوقف في المحطة الأخيرة قبل الدوحة.

بدأت المسافرات على الطائرة، واحدة إثر الأخرى، بالدخول إلى غرف الحمامات. ليخرجن ملتحفات بالعباءات السوداء من قمة الرأس إلى أخمص القدم فوق ملابسهن الأوروبية، بل إن بعضهن وضعن نقابا أسود. بدا الأمر وكأن تغيرا طرأ على فصول مسرحية لتلعب الممثلات أدوارا بديلة. ففي لحظة كن نساء أوروبيات الزي يتبادلن بكل ثقة الحديث مع أزواجهن، وفي الأخرى تحولن إلى حريم متحفظات يهمسن إلى مرافقيهن، ويجلسن بخجل في مقاعدهن وأمارات الاحترام بادية عليهن.

كانت هؤلاء النساء يجهزن أنفسهن للثقافة السائدة في الوطن. ويرمز تغيير الزي على الطائرة إلى واحدة من أعقد المعضلات الاجتماعية في العالم الحديث: الحفاظ على التقاليد التراثية الثقافية في مواجهة العولمة. ففي عالم اليوم، تتداخل وتتشابك المجتمعات المختلفة، وتتمازج، وتتجاور، وتتحاذى - ويجبر أفرادها على السير على حبل مشدود، وأي انزلاق عليه قد يكون كارثيا. النساء المسافرات على الطائرة ربما يتصرفن باطمئنان ويشعرن بالارتياح حين يجلسن في مقهى في ريجنت بارك في لندن، لكن يقبلن

في بلدهـن الفصل بين الجنسين والاحتشام المطلوب فيها. إذ حوصرن في مسرحية عبثية عالميـة يسجن فيها المظهر الخارجي أمام الملأ في إسار التقليد التراثي. فإن أردن تحدي عاداتهـن وتقاليدهـن المحليـة عبر كشف "هوية" أخـرى، سوف يشـوه المجتمع سمعتهن وتتناولهن الأقاويل، وهذا يحرج إلى حد بعيد عائلاتهن برمتها. أما أفضل مسار لهن فهو التـزام تقاليـد المجتمع مع تمثل ما هو مناسب من العـالم الغربي - حمل حقيبة يد ثمينة مـن تصميـم "فالنتينو" مـع العباءة السـوداء، مثـلا، واستخدام الخطـاب الغربي عن حقوق المرأة مع تجاهل الفقر وانتهاكات حقوق الإنسان الشاملة في بلادهن.

المرأة المسلمة الحديثة، كأولئك المسافرات اللاتي ركبن الطائرة من لندن، التي تجمع وتوالف الثقافتين الغربيـة والإسلامية تتبع نموذج عليكره. لكن عندما تنزل من الطائرة وتسير مذعنة خلف زوجها بثلاث خطوات، تنتقل إلى نموذج ديوباند. ليس ثمة خداع هنا، بـل مجرد قيم ثقافية. وفي هذه الأوقات المتغـيرة والصعبة، تجسد المرأة هذه القيم وهي أولى ضحاياهـا أيضـا. فضلا علـى أن هذه القيم لا علاقة لها بمبـادئ العدل والإحسان والرحمـة التي نادى بها الإسـلام، لكنها تساير نزعات العادات وأفـكار الشرف القبلية. ومن أجل فهم هذه الظاهرة يجب إدراك حقيقة أنها تكمن خارج مجال اللاهوت، وضمن نطاق الأنثروبولوجيا.

العالم ليس مسطحا

في كتابـه "العالم مسطح"، يتناول توماس فريدمـان بحماس واندفاع واهتياج العالم الجديـد اليوم[1]. ولم يكن بعيـد الشبه عن "كورتيز الجسيـم" في قصيدة كيتس (On First Looking into Chapman Homer)، الذي ظن أنه أول أوروبي "يكتشف" المحيـط الهادي ويحـدق إليه "بخيال تخمينـي جامح". فهو يعتقد أنـه "اكتشف" العالم الجديد من منظار العولمة؛ عالم "مسطح"، "متصل". فمع تزايد رفع الحواجز التجارية والسياسية والتقدم التقاني المتسارع للثورة الرقمية، تتواصل الآن أعداد ضخمة من الناس عـبر الكوكب الأرضي. ويبدي فريدمان تفاؤله بهذه الاتجاهات، لكنه يشير ضمنا إلى أن المجتمـع الذي يعترضها ويقـف حجر عثرة في طريقها سوف تدوسـه وسرعان ما يصبح مسطحا. فالعولمة لا يجبو في الحقيقة لا يمكنمقاومتها.

مـن وجهة نظر المجتمـع التقليدي، الأرض ليست مسطحـة ولا مستوية ولا ممهدة، بـل تملؤها الوديان والأغـوار والجبال. والثقافة والعادات والتقاليـد والأفكار الموروثة من الماضي علامات قيمة على الهوية، ولذلك فهي محددات للسلوك: تحدد كيف يحكم الناس بعضهـم علـى بعض، وتشمل أفكارا تتعلق بالشرف والكرامـة. وربما أفضل من يمثل هذا الرأي الجماعات التي تحافظ على التراث وتؤيده – مثل القبليين في الإسلام.

يعـد مفهوم القبيلة والقبليين محدود الأفق والمدى في أذهان معظم الأمريكيين ويعبر عنـه بنبرة ازدرائية، حيث يستحضر إليها علـى الفور صورة السكان الأصليين في أمريكا قبل قرن من الزمان، أي أولئك الذين دعوا ذات المرة بـ"الهنود الحمر" بأسلوب تحقيري وصورتهـم هوليود بهيئة متوحشين بدائيين شبه عـراة. في الحقيقة، وعلى شاكلة العديد مـن أفراد القبائل، كانوا يملكون ثقافة متطورة ومعقدة مرتبطة ارتباطا مباشرا ببيئتهم الطبيعية. ولم يكـن المستوطنون البيض، المتشوقون إلى الحصول على الأراضي، يتمتعون بالصـبر أو التعاطف معهم. وتعذر على الثقافتين التعايش معا، فهما نقيضان لا يحضر أحدهما إلا إذا غاب الآخر: إما أن تسود وتنتصر أساليب المستوطنين أو السكان الأصليين. مـع ظهور السكك الحديدية، والتحسن الذي طـرأ على الأسلحة النارية في القرن التاسع عشر، حسم مصيرهم – أبيدت العادات والثقافة المحلية وسحقت كليا.

وعلـى العكس من ذلك، لا تعد القبائل في العالم الإسلامي مجتمعات محلية هامشية أو معزولـة تعيش على حافة الانقراض. بل هي مجتمعات كبيرة وقويـة ومتطورة وشبيه بـالأمم – لها لغتهـا ومناطقها وتاريخها المشـترك، ومن ثم هويتها المميـزة. لكن خلافا للدولة – الأمة الحديثة، يمكن للقبيلة أن تتحدر من جد مشترك تحمل اسمه. لذلك، ليس لـدى أفرادهـا أدنى شك فيما يتعلـق بولاءاتهم. على سبيل المثال، تعـد قبيلة يوسف زاي الأرستقراطيـة البشتونيـة متحدرة من جد مشترك هو يوسـف (في اللغة البشتونية تعني /زوي/ أو/ زاي/ ابـن أو أبنـاء، ولذلك فإن كل من يدعـي انتسابه إلى قبيلة يوسف زاي يمكن أن يربط نسبه بطريقة مشروعة بيوسف نفسه.

للقبائـل الإسلامية بلـدان ومناطق ومقاطعـات تحمل أسماءهـا. فالسعودية سميت كذلـك نسبة إلى سعود. ونظـرا لأن "ستان" تعني "أرض"، فـإن أفغانستان تعني حرفيا

أرض الأفغان (اسم آخر للبشتون). واوزبكستان، هي أرض قبائل الأوزبك، وبلوشستان (في باكستان) هي مقاطعة قبائل البلوش. وتقع مقاطعتا وزيرستان الشمالية والجنوبية (في باكستان أيضا) ضمن مناطق قبائل وزير، وهذا ما يكدر صفو قبيلة قوية أخرى، قبيلة محسود، التي تسكن جنوب وزيرستان. أما منطقة بوغتي في بلوشستان فتحمل اسم قبيلة بوغتي.

الآن، تواجه المجتمعات القبلية في مختلف بلدان إفريقيا وآسيا (الإسلامية وغير الإسلامية على حد سواء) طغيان العولمة التي تطالب بالخضوع والإذعان لثقافة موحدة مستوردة من وراء البحار، في حين تلح القبيلة بإصرار على الحفاظ على العادات المحلية والثقافة الأصيلة. العولمة تفترض مقدما إزالة الحدود، والقبيلة تحدد نفسها اعتمادا على الحدود. الصراع المتأصل بين هاتين النظرتين إلى العالم يوضحه بأسلوب درامي مؤثر ما يجري في العراق وأفغانستان وباكستان ونيجيريا والصومال، وهي بلدان تضم عددا كبيرا من القبائل الإسلامية القوية. وتحت ضغط العولمة، لم تعد هذه القبائل متمسكة بأسلوب الحياة البدوي المترحل ذاته الذي كان سائدا قبل بضعة أجيال، حين كانت قادرة على عبور الحدود الدولية للبقاء في عزلة عن المجتمع الغالب ومن ثم الحفاظ على تقاليدها وعاداتها.

في الوقت ذاته، يبقى السلوك القبلي والتشديد على الهوية الذاتية قوتين مؤثرتين حتى في المجتمعات التي تعد حديثة. فالتلاحم القبلي بين مسلمي ماليزيا وإندونيسيا مثلا يتعاظم ويشتد حين يواجه الأعداد الكبيرة والنافذة من السكان ذوي الأصول الصينية في هذين البلدين المسلمين. إذ أوجدت الاختلافات في الدين واللغة والثقافة والشعائر والطقوس والاحتفالات توترات مريرة بين المسلمين والصينيين، يمكن أن تنفجر على شكل أعمال عنف في المجتمعين كليهما. في ماليزيا، يعد أفراد طائفة هان الصينية العرقية من الرأسماليين الناجحين، وهم يحسدون على ثروتهم المالية. في إندونيسيا، يعدون شيوعيين ناجحين ويحسدون على نفوذهم السياسي. ولذلك هنالك مشاعر متفاقمة من الغضب والاستياء بين الأكثرية المسلمة في البلدين كليهما من النجاح المحصور - كما تعتقد - في الأقلية غير المسلمة. ولأن المسلمين في ماليزيا وإندونيسيا يعتقدون أن هويتهم مهددة بالمهاجرين إلى

وطنهم، كانت ردود فعلهم عنيفة أوقعت آلاف الضحايا[2]. تلك كانت ردة فعل قبلية غريبة تماما عن قيم الإسلام القائمة على العدل والإحسان والتسامح والتراحم.

أبلغ شيخ من قبيلة محسود في وزيرستان ايفلين هاول، الإداري البريطاني المسؤول عن وزيرستان في منتصف عشرينيات القرن الماضي أن "من الواجب الحكم على الحضارة وفقا لنوع الإنسان الذي تنتجه". وقال إن من الأفضل ترك قبيلته وشأنها بحيث يمكن لأفرادها "أن يكونوا كآبائهم من قبلهم - رجال متشبثون بالشرف والتراث والتقاليد"[3]. كان الاثنان يناقشان مزايا ثقافة كل منهما، وانتقد شيخ قبيلة محسود الإصلاحات البريطانية لأنها "أحدثت الفوضى والاضطراب في الهند البريطانية". ووافقه هاول الرأي بعد تفكير عميق.

من ناحية أخرى، يبدو فريدمان أكثر ثقة بمزايا الحضارة العالمية التي يمثلها، لكن من الدروس المفيدة له تذكر أن الإمبراطورية البريطانية - التي لم تغب عنها الشمس - اختفت من وزيرستان بعد عقود قليلة من حديث هاول، مخلفة وراءها بعض القلاع المهجورة وبعضا من التقاليد شبه المنسية التي حملها الضباط الباكستانيون.

وبعد ذلك، اختبر رفض وزيرستان لـ"التسطح" العولمي حين ذكرت وسائل الإعلام الأمريكية أن أسامة بن لادن يختبئ هناك. أما حمى وسائل الإعلام وتأملاتها التخمينية فقد جلبت شهرة إلى منطقة لم يرحب بها سكانها الذين يثمنون عاليا خصوصيتها. في ربيع عام 2004، أطلق الجنود الأمريكيون "عملية عاصفة الجبال" على طول الحدود الأفغانية - الباكستانية للبحث عن بن لادن وفلول الطالبان. وتحت ضغط مباشر ومكثف من الولايات المتحدة، أرسل الرئيس برويز مشرف أعدادا كبيرة من الجنود الباكستانيين إلى وزيرستان أول مرة في تاريخ البلد؛ مؤكدا لكل من لديه شك هيمنة العسكر على الحياة الباكستانية[4]. وشعر الجنرالات في راولبندي، وقد أثار حماستهم امتلاكهم لأحدث الأسلحة الأمريكية، أن إخضاع وزيرستان سيكون مهمة سهلة. وأشار مشرف في حديث إلى إحدى المحطات التلفزيونية الأمريكية، إلى "هدف ثمين". وتنبأ بعض المعلقين بأن بن لادن أو معاونه أيمن الظواهري سيقعان في الأسر قريبا. وكانت وسائل الإعلام متشوقة ومترقبة ومفعمة بالإثارة.

لم ينجح الأمريكيون ولا الباكستانيون المقيمون في المدن مثل مشرف وجنرالاته في أداء المهمة الموكولة إليهم على ما يبدو. إذ تتمتع قبائل وزيرستان في مناطقها الجبلية المرتفعة الوعرة ووديانها المنعزلة بمناعة حصينة ولا يمكن قهرها. ووفقا لأوامر الولايات المتحدة المطالبة بالعثور على الإرهابيين وقتلهم، قصف مشرف التجمعات السكانية في وزيرستان بالحوامات الحربية التي زوده بها الأمريكان. وانتهى القتال بمقتل عدة مئات من الجنود، في حين اشتكت القبائل من أعمال القتل العشوائية التي لم توفر النساء والأطفال. بعد ذلك، قلص مشرف النشاط العسكري وتفاوض مع القبائل. وحين انهارت المفاوضات، أرسل الجيش مجددا، مكررا الحلقة المفرغة. في نهاية المطاف، استدعيت مجالس القبائل واستشير زعماؤها وشيوخها. ولو فعلت الحكومة الباكستانية ذلك في البداية لأنقذت العديد من الأرواح التي أزهقت والكثير من الممتلكات التي دمرت.

أدت مغامرة مشرف في وزيرستان إلى تراجعه المخزي المذل، وإلى تأسيس إمارة طالبانية لها أرضها وعلمها عرفت باسم الإمارة الإسلامية في وزيرستان[5]. ولم تعرف واشنطن كيف تتعامل مع هذه التطورات ولم تفهم مغزاها. في هذه الأثناء، اتهمت كابول باكستان بتشجيع الطالبان سرا.

كان الأمريكيون أكثر خرقا وحماقة من مشرف، فقد استمروا في الغوص عميقا في الرمال المتحركة في العراق وأفغانستان، وما يزالون مؤمنين بقوة إقناع القنابل الفتاكة والمدمرة والذكية على المستوى الحربي، وقدرة الدولار على الإغراء والغواية على المستوى المالي. إذ لا يمكن لأي جماعة محلية أن تقاوم مدة طويلة، كما ظنوا. ومثلما أشار الكثير من المقربين إلى قبائل وزير ومحسود، فإن أفرادها "أقسى وأصلب بشر على ظهر الأرض"[6]. في عام 1920، وفي ذروة الاستعمار البريطاني، استطاعوا إبادة لواء بريطاني كامل، حيث قتل 400 جندي، بينهم 28 ضابطا بريطانيا و15 ضابطا هنديا. وفي السنوات التالية، تمركز عدد أكبر من الجنود البريطانيين والهنود في وزيرستان مقارنة بأي منطقة أخرى في شبه القارة. وإذا كان ثمة درس نتعلمه من التاريخ فهو أن هذه القبائل فرضت على الدوام ثمنا باهظا على معارضيها وأعدائها الجاهلين بالظروف الحلية. أما إذا كان الغزاة متغطرسين أيضا فلابد أن تحل بهم الكارثة.

أخـبرني مشرف ذات مرة أنه معجب بنابليون، لكن مـن الواضح أن الدروس والعبر المستخلصة من إخفاقات نابليون قد فاتته، خصوصا أخطار القتال على جبهتين. فمع أنه منشغـل بمطاردة بن لادن على جبهة وزيرستـان، إلا أنه أرسل جيشه لتهدئة قبيلة بوغتي في بلوشستـان. وعلى شاكلة قبيلتي وزيرستان ومحسود بين البشتون، تشتهر قبيلة بوغتي بـين البلوش بطبيعتها الحربية والإحساس القبلي بالشرف. لقد أوقـع مشرف نفسه في معضلـة كان البريطانيون خلال حقبـة الاستعمار يحرصون أشـد الحرص على تجنبها، عارفين بأنها ستؤدي إلى كارثة. وبدلا من ذلك اندفع مشرف لمواجهة أشد وأصلب وأكثر القبائل ضراوة في جنوب آسيا في وقت واحد وعلى جبهتين اثنتين. وبذلك فهو يبدد الوقت والطاقـة ويبعدهما عن القضايا الملحة المتعلقـة بالتنمية الوطنية والتكامل والاندماج، في حين يفضل الأمريكان أن يركز جهوده على الحرب على الإرهاب.

لم تكن هذه المرة الأولى التي تجرب فيها باكستان الحل العسكري لفرض إرادتها على بلوشستـان ووزيرستان. ففي سبعينيات القرن العشريـن، أرسل رئيس الوزراء ذو الفقار علـي بوتـو الجيش إلى المنطقتين كلتيهما. أما الفارق بين أمـس واليوم فيكمن في أن دافع بوتـو كان "داخليـا" – بهدف إيصال حزبـه السياسي إلى السلطـة – في حين أن مشرف يعمل نيابة عن الأمريكان. ومن ثم فإن التطورات في المنطقة ترتبط الآن ارتباطا مباشرا بالقضايا الدولية الواسعة.

اقتفاء أثر الطالبان

بعد وقت قصير من سقوط الطالبان في كابول نتيجة الغزو الأمريكي لأفغانستان عام 2001، دخلت قبائل وزيرستان في مواجهة مع مشرف. ووفقا لمبادئ الضيافة القبلية التي تتمسـك بها، وفرت ملاذا للطالبـان الهاربين عبر الحدود. على أية حال، هنالك تعاطف عـام مـع الإخـوان البشتون الذيـن يقاتلون الغـزاة "الأجانـب" – حتى وإن كانـوا أفراد وحـدات النخبة في الجيش الباكستاني الزاحـف إلى وزيرستان. ولا توجد سابقة لمقاومة قبلية إلى هذا الحد في تاريخ باكستان.

مـع تصاعد حدة القتال في وزيرستان وتدفق مزيد مـن الجنود الباكستانيين نتيجة الضغـط الأمريكي، عقدت القبائل العزم علـى التوحد تحت مظلة واحدة لمقاومة الجيش

الغـازي، وهـي استراتيجية قبليـة نمطية. فضـلا على أنهـا سمحت للزعمـاء الدينيين المتحالفين مـع الطالبان، الذين تحدوا السلطة المرجعيـة لشيوخهم ليكونوا رأس الحربة في المقاومـة. كانت لهذه التطورات تشعبـات وتبعات على سياسة العولمة والمرحلة اللاحقة علـى الحادي عشر من سبتمبر. هكذا بالضبط ظهر الطالبان في أفغانستان في البدايات المبكـرة مـن التسعينيات، بعد أن خرجوا من ركام الاحتـلال السوفييتي الطويل والمدمر. انهـارت الزعامـة القبلية التقليديـة، ورحب النـاس بالطالبان لوضع حـد للفوضى. ولم تصـب القبائل بخيبـة أمل من هذا التلاحـم إلا لاحقا. هنالك حالـة مشابهة لتلك التي سـادت المزاج العام وشجعـت الشبان الأفغان على دعم وتأييد الطالبان، تهيمن الآن على شبان وزيرستان.

أوضح الطالبـان على جانبي الحدود موقفهم من العولمة دون لبس وذلك عبر تحريم التلفزيون وأي عادات ترتبط بالثقافة الشعبية الغربية. فهويتهم الإسلامية وقدرتهم على التشبث بتقاليدهم وعاداتهم أشد أهمية من الانضمام إلى النظام العالمي. وحين تعرض الطالبـان للضغـوط من أجل تسليم بن لادن في أعقاب الحـادي عشر من سبتمبر، غلفوا ردهم بتعابير قبلية: مبادئ وقواعد الشرف لا تسمح بتسليم الضيف إلى أعدائه. لم يفهم هـذه المبادئ حتـى الخبراء الدوليين المختصين بالتعامل مع هـذا الجزء من العالم. على سبيل المثال، رأت فيها مادلين اولبرايت "لائحة من الذرائع التبريرية الواهية": "يقدمون الحجـة على أن ذلك (تسليم بـن لادن) ينتهك قواعد السلوك الثقـافي القاضية بإكرام الضيـف، وأن بـن لادن بطل للأفغـان بسبب دوره في محاربة السوفييـت في الثمانينيات. وقالوا: 'سوف نسقط إذا سلمناه لكم وسيظن شعبنا أننا قبضنا مالا منكم.."[7].

في حـين أن موقـف الطالبان العنيد كلفهـم غاليا وتسبب في طردهم مـن كابول، إلا أنـه جلـب التعاطف معهم من النـاس العاديين. فقد شكلت قبائـل البشتون على الطرف الباكستـاني من الحدود منظماتها الطالبانية الخاصة بها، لتهيمن في نهاية المطاف على وزيرستان. يذكر نيك شميدل، أحد طلابي السابقين الذي سافر إلى مناطق البشتون في باكستان في شباط/ فبراير 2006 (لكن لم يرتبط بمشروعنا)، أن الطالبان يوزعون على نطاق واسع أقراص فيديو مدمجة تظهر شنقهم خمسة مجرمين. "الجثث الخمس أنزلت

ثـم قطعت رؤوسها وعلقت رأسا على عقب". كان هـؤلاء من أكثر "الأشخاص بذاءة" في المنطقة، و"رأى السكان المحليون، من المتعاطفين أو غير المتعاطفين مع طالبان، في العملية تنفيـذا للعدالـة". وعلى نحو مشابه، مـا يزال العديد من رجال القبائـل في هذه المناطق يبحثـون عن العدالة لدى السلطات الباكستانية، لكن دون جدوى. وحين لا يتمكن أحدهم مـن الحصول على العون لإطلاق سراح سائق سيـارة مخطوف، يلجأ إلى الزعيم القبلي المحلـي، و"في خـلال بضعة أيام، يهاجم أحد المنـازل ويستعيد السيـارة ويحرر السائق. هؤلاء الزعماء يمتدحون بوصفهم أبطالا"[8].

في حـين فشل الطالبـان في دمج النظام الإسلامي مع العـادات والأعراف القبلية في كابول، نجحوا في وزيرستان. فالمبدأ القائل بوجوب الدفاع عن الإسلام أمام الغرب تلون الآن بالأفـكار القبليـة عن الثأر: فمقاتلـو وزيرستان، كما قال أحدهـم "هم من السكان المحليـين الذين يثـأرون لبيوتهم المدمرة وعائلاتهـم المقتولة". وقـال آخر: "سنأخذ بثأر كل قتيـل". "فالـدم ليـس رخيصا كما يظن بعضهـم. فقتيل واحد يولـد مئات المطالبين بثأره"[9].

أعلن زعيم للطالبان اسمه حجي عمر، في مقابلة مع هيئة الإذاعة البريطانية أجريت في واناأوائـل عـام 2006: "لـن نوقف جهادنـا ضد الأمريـكان. ولن نقبـل بمناقشة أي قضيـة معهـم. نريد فقـط أن يخرجوا من بلادنا". أمـا الباكستانيون فحملـوا قدرا أقل مـن اللوم: "لأننا نفهـم أن هجماتهم علينا تشن تحت الضغـط الأمريكي". يكشف موقع المقابلـة مدى نفوذ الطالبـان في وزيرستان: وانا ليست مقرا لمدير المقاطعة الإدارية فقط (وهـو منصب شغلته ذات يوم)، بل لكشافة جنـوب وزيرستان، وهي قوات شبه عسكرية تحافـظ على القانـون والنظام في المنطقـة. وحين يعقد قائـد جماعـة أعلنتها الحكومة الباكستانيـة منظمة إرهابية، مؤتمرا صحفيا في مركز المنطقة الإدارية، فإن ذلك علامة تدل على القوة بكل وضوح.

ومثلمـا ذكرنا آنفـا، ظهر الطالبـان في أفغانستان في حقبة مـن الفوضى التي عمت البـلاد. فمـع نهاية الاحتـلال السوفييتـي في أواخـر الثمانينيـات، أقام أمـراء الحرب القبليـون مناطق نفوذ وفق هدنـة مزعزعة اعتمادا على القـوة الغاشمة. وشاعت أعمال

النهب والسلب والتخريب والاغتصاب على أوسع نطاق. وغدا الخشخاش المحصول الأول للمزارعين. لكن العلاقات القبلية تفككت تماما حين "تزوج" أحد أمراء الحرب صبيا في قندهار في مراسم علنية، في تحد سافر للعادات والتقاليد الإسلامية والمحلية كلها. ثارت ثائرة رجال وعلماء الدين، وشنوا حملة بمشاركة الشباب والفقراء وغيرهم لتنقية المجتمع من الشرور والآفات الاجتماعية. وأطلقوا على أنفسهم اسم "الطالبان" لأن العديد منهم كانوا من طلاب المدارس الدينية. كان الطالبان هم "الأخيار" الذين أتوا لاستعادة النظام والعدالة. وأول عمل قاموا به حظر المقامرة والمسكرات. وفرضوا تفسيرا متشددا ومتصلبا للشريعة الإسلامية، أثر تأثيرا مباشرا على النساء، خصوصا في المدن. إذ لم يسمح لهن بالعمل في المكاتب، مثلا، أو حتى بالظهور العلني لأداء مهماتهن اليومية مثل تسوق السلع الضرورية للأسرة من الأسواق. وركز المسؤولون بوجه خاص على العازبات، واتصفت العقوبات المفروضة على السلوك غير الأخلاقي بالقسوة والفظاعة دوما.

استطاع الطالبان في أوائل التسعينيات، انطلاقا من قاعدتهم في قندهار وبدعم من باكستان، التحرك شمالا بسرعة واحتلال معظم أفغانستان. أما المعارضة الرئيسة التي واجهتهم فأتت من التحالف الشمالي المكون من قبائل تسكن شمال البلاد، مثل الطاجيك، المدعومة من روسيا والهند. وبعد هزيمة الطالبان وطردهم من كابول، جرى الهجوم على سمعتهم وتشويهها: فقد صورتهم وسائل الإعلام الغربية كتجسيد للبربرية القروسطية. لكن بعد مرور السنين، وحتى بالرغم من تنصيب حكومة حامد كرزاي المدعومة من أمريكا، ما يزال المجتمع الأفغاني متشبثا بالمبادئ التي سادت في عهد الطالبان ولم يدخل في حقبة جديدة من الغربنة، كما توقع المعلقون الغربيون. وعلى الرغم من تحسن فرصة النساء في التعليم وحتى العمل، إلا أن العادات والتقاليد القديمة ما زالت راسخة ومتجذرة.

إن استئصال جماعة سياسية قوية في مجتمع قبلي لا يلغي قرونا طويلة من الثقافة والعادات والتقاليد. فبعد وقت قصير من استلامه السلطة، عين الرئيس كرزاي فضل الهادي شينواري رئيسا للمحكمة العليا في أفغانستان. وسرعان ما هاجم فضل الهادي إدخال التلفزيون بوصفه مؤذنا بالفساد الأخلاقي. "بصفتي مسؤولا رسميا لا يمكن أن

أسمح بمحطات التلفزيون (الكبلية) في أي جزء من أفغانستان. والمشتكون إلى المحكمة العليا قالوا إنها تبث صورا لمغنيات شبه عاريات ومشاهد فاحشة وبذيئة من الأفلام"[10]. وأدان تعيين وزيرات في الحكومة، وأيد رجم الزاني والزانية وقطع أيدي اللصوص، وعارض بشدة المسيحية. لكن يبدو الآن أن وسائل الإعلام الغربية غير مهتمة بخطاب أو سلوك الحكومة الجديدة. ومن الواضح أن قلة قليلة من المعلقين يدركون الفوارق بين العادات القبلية والممارسات الإسلامية في المجتمع الإسلامي، متشبثين خطأ بفكرة العالم الإسلامي المكون من كتلة صلبة وجامدة واحدة.

القبائل والإسلام

على الرغم من أن التطورات في البلدان الإسلامية الحديثة قد تبدو بعيدة كل البعد عن التراث القبلي، إلا أنها في الواقع تؤكده، كما بدا واضحا خلال توقفي في عمان عاصمة الأردن، الدولة الحديثة التي تتمتع بروابط عالمية وثيقة. فقد دعاني أحد أمراء الأسرة المالكة إلى زيارة المسجد الكبير الذي يساعد في تشييده إحياء لذكرى عمه، الملك الراحل حسين. عكست الألوان الطبيعية للمسجد ذائقة وبساطة هندسته المعمارية. وعلى الرغم من تصميمه الجديد والتقدمي، إلا أنه ظل محافظا على الأبراج التقليدية التي تعود إلى الحقبة المملوكية قبل خمسمئة سنة. إذ ترتفع قاعدتها الكئيبة وجدرانها السميكة لتشرف على المدينة وكأنها تمسح وتسبر إمبراطورية مترامية الأطراف. هنالك فسحة مكانية واسعة داخل المسجد، أما ومضة اللون الوحيدة فظهرت في الكتابة المنمقة على المحراب: الله أكبر ومحمد خاتم الرسل. كان هذا أكثر من مجرد مسجد. ففي أسفل التل، شيدت مكاتب كاملة للملك الحالي. ومثلما شرح الأمير، بني المسجد تخليدا للأسرة، ودينها، وتراثها في الأرض - بكلمات أخرى، كرمز للتوليفات المختلفة في المجتمع العربي التي تربط الأمة معا: الإسلام، والقبيلة، والنسب، والتراث.

مع أن النبي رفض العصبية القبلية - معلنا: "لا بداوة في الإسلام" إلا أن المجتمع الإسلامي، بجذوره القبلية العميقة، لا يستطيع التحرر من إسار الصراع بين الرؤية الإسلامية الشاملة للعالم والرؤية القبلية. وبعد أن أحيا ووسع رسالة الأنبياء السابقين (خصوصا موسى وعيسى)، ينتظر الإسلام من المجتمع أن يتأسس على العدل والإحسان

والعلم. لكن الإسلام ولد من رحم مجتمع قبلي له قواعد محددة للشرف والضيافة والثأر. وبمرور الزمن، ارتبط العديد من هذه العادات القبلية بالإسلام ذاته. وفي الحقيقة، كثيرا ما يخلط الغربيون العادات القبلية المحلية، مثل جرائم الشرف وختان الفتيان، بالتقاليد التراثية "الإسلامية". وعلى العكس من ذلك، فإن العديد من العلماء المسلمين، مثل فرحات الهاشمي، عارضوا بإلحاح دمج العادات القبلية في المجتمع الإسلامي. فحين تحدثت عن عادات قبائل البشتون مثلا عدتها فرحات "مناقضة للإسلام بطريقة ما"[11].

في المجتمع القبلي، تستمد قيمة الفرد من مكانه على شجرة النسب التي تربط أصل كل فرد في القبيلة بجد مشترك. ومن ثم، تتمايز القبائل على أساس ذلك الجد، الذي تمجد ذكراه ويربط اسمه بالقبيلة. ولا شك في أن عادات وثقافة القبيلة تبقي المجتمع المحلي مترابطا ومتلاحما ومتميزا. أما في حالة حدوث صراع بين أفراد قبيلة وأخرى، فإن الولاء يكون للقبيلة حتما. إذ يجب على أفرادها الحفاظ على شرفها، وهذا يعني القتال باسمها والثأر لقتلاها أو إذلالها. وخلافا للثقافة الحديثة في الغرب، حيث نادرا ما تعود الذكرى إلى أكثر من عقد أو عقدين من السنين، فإن للثقافة القبلية تاريخا طويلا وذكريات ممتدة أجيالا عديدة. هناك قول مأثور ومعروف بين القبائل في أفغانستان وباكستان: "سآخذ ثأري ولو بعد مئة سنة، وبأسرع وقت".

ونظرا لأن المرأة على وجه الخصوص ترمز إلى شرف القبيلة، يجب حماية حشمتها وعفتها مهما بلغ الثمن. فإذا حبلت امرأة من رجل غريب بعد أن عاشرته بالحرام، فإن ذلك يمثل ضربة أخلاقية لشرف القبيلة ولنسبها المصمم والمرسوم بعناية. في الوقت ذاته، قد يتلقى الزواج من خارج القبيلة والجماعة التشجيع لإقامة التحالفات السياسية. فالقبائل التي ظلت تعادي بعضها بعضا سنين طويلة يمكن أن تتحالف بين عشية وضحاها نتيجة المصاهرة بينها.

ما تزال العادات القبلية مستمرة في ممارسة نفوذ مهم حتى في الدول الراغبة في "التحديث". ففي الأردن مثلا، حاول الملك عبد الله الثاني، منذ أن اعتلى العرش عام 1999، إلغاء القوانين التي تبيح "القتل دفاعا عن الشرف"، التي تعد متحيزة على

النســاء المتهمات بإلحاق العار بالأسرة. فوفقا للمادة 340 من قانون الجنايات الأردني، يتمتــع الزوج الذي يقتل زوجتــه الزانية بالحصانة، في حين تخفــف العقوبة على القريب الذكــر الذي يقتل قريبته بدافــع الشرف. وفي حالة اشتهرت في صيف عام 2006، قامت أم في التاسعة والستين من العمر، بمساعدة إحدى بناتها، بذبح بنتها الأخرى لأنها ولدت سفاحا.

حاول الملك عبد الله عبثا معالجة هذا القانون. لكن تبقى القوى القبلية مؤثرة وفاعلة حتــى في مجلس النواب. وكمــا أبلغني الأمير، يعتمد الملك في سلطتــه وتأييده على هيمنة القبائــل والعشائر التي تمثل نسبة 99% من المشهــد السياسي في الأردن. ونتيجة لذلك، فــإن معظــم الجرائم المرتكبــة بحق النساء هي تلــك المتصلة بالشــرف (حوالي 55% منهــا). ومع أن الشريعــة تضع العديد من الكوابــح والموانع أمام هذا النــوع من السلوك القبلي / العشائري تحديدا، إلا أن العادات القبلية تضعف تأثيرها في الأردن.

وجد زعماء القبائل على طول مجرى التاريخ الإسلامي أن من السهل تعزيز سلطتهم عبر السعــي لإقامة تحالفات مع الزعماء الدينيين. وفي المقابل، حصل الزعماء الدينيون علــى منصة انطلاق لنشر آرائهم. ومن الأمثلة المؤثرة ما حدث في القرن الثامن عشر في مهــد الإســلام ذاته. ففي نجد، عقــد داعية مغمور يدعى محمد بن عبــد الوهاب، الذي كان قــد بدأ حركة لإحيــاء وتنقية الإسلام، لقاء وتحالفا مع محمد بن سعود زعيم إحدى القبائــل المحليــة عام 1744. أما مصير العلاقة الرابطة بــين الرجل الذي تمثلت مهمته ورسالته في نشر كلمة الله والرجل الذي رغب في الحكم، فقد تحدد في زواج ابن سعود من إحــدى بنــات عبد الوهاب. ووافق الاثنان على قيام قبيلة سعــود بنشر أفكار عبد الوهاب الإسلاميــة إذا ما حكمت البلاد. وأفرز الحلــف بينهما تبعات هائلة على العالم في القرن العشرين حين اكتشف النفط في شبه الجزيرة العربية. وسوف يصل آل سعود إلى السلطة ويطلقون اسمه على شبه الجزيرة العربية برمتها. تبعت المملكة العربية السعودية العقيدة الوهابية وما زالت حتى اليوم تروج لها عبر المدارس الدينية والمراكز الإسلامية.

لم تكــن الوهابية الوحيــدة في اهتمامها بتنقية الإسلام مما علق به من شوائب. ففي الوقــت الذي كان فيه محمد بن عبد الوهاب ينشر أفكاره في شبه الجزيرة العربية، ظهر

في الهنـد بعد بضعة عقود من وفاة اورانغزيب آخر الأباطرة المغول العظام، شاه ولي الله الذي أقلقته سرعة انحسار وتراجع قوة المسلمين، وهذا يضع المسلمين في "خطر" داهم، كما شعر. ولذلك حض على الحفاظ على الشكل "النقي" من الإسلام. ونمت من أعماله الأفـكار التي ازدهـرت في ديوبانـد في القرن التالي. لكـن الفارق بين الحركـة الوهابية وحركـة ديوبانـد كمن في عدم وصول أتبـاع ديوباند إلى السلطـة السياسية في الهند، في حـين حكم أتبـاع محمد بن عبد الوهـاب وذريتهـم السعودية وروجوا أفـكاره تحت اسم العقيـدة "الوهابيـة". ومع أن الوهابية مشابهة لحركة ديوبانـد، إلا أنها تمتعت بما يكفي من القوة لإقصاء واستبعاد أي تفكير مرتبط بمدرستي أجمر أو عليكره. أما الطالبان في أفغانستان فقد تأثروا بديوباند والوهابية معا، وعدّوهما عينين في الوجه نفسه.

ليس من قبيل الصدفة أن يحاكي أسامة بن لادن، نجم الوهابيين والطالبان، محمد بن عبد الوهاب حين عقد حلفا سياسيا مع الملا عمر (زعيم الطالبان) وعززه بالمصاهرة بين العائلات. لقد أدى التحالف السياسي الذي عقد بين ابن عبد الوهاب مع ابن مسعود إلى ظهـور دولة سـوف تنشر رسالته بعد ثلاثة قرون من وفاتـه. لكن حلف بن لادن أفرز فوائد ومكاسب له في حياته: سيطر الطالبان على أفغانستان في التسعينيات وطبقوا رؤيته للإسلام.

ومهمـا بعدت الشريعة الإسلامية عـن العادات القبلية، فقد تمكـن العقل الإسلامي القبلـي مـن المصالحـة بينهما. فخـلال السنـوات التي قضيتهـا في المناطـق القبلية في باكستـان، كنت أشير إلى التناقضات بينهما في أحاديثـي الودية مع شيوخ القبائل، وكان هؤلاء يرددون بنوع من الدعابة إنهم مدركون تماما لتعدياتهم. فخلافا للتقاليد التراثية الإسلامية مثلا، اعتاد والد العروس أن يطلب مهرا كبيرا من والد العريس ثم ينفقه كما يشـاء. والمرأة المشتبه في خيانتهـا أو ارتكابها الزنا، يمكن أن تعاقب بعقوبة شديدة تصل حد القتل على يد الزوج أو الأخ أو الأب. وكان شيوخ القبائل يوافقون على العقوبة بذريعة العـادات والتقاليد التي يبررها الحفاظ علـى النسب[12]. يرجع نسب البشتون إلى قبيلة إسرائيـل الثالثة عشرة "التائهة"، بل يتصـل ببعض الشخصيات التاريخية الإبراهيمية، ومنهـا إبراهيم نفسه. ومن ثم، يؤكد ذلك حسـب تفكيرهم أنهم سيكونون دوما مسلمين

صالحين بغض النظر هل يتبعون حكم الشريعة بدقة وصرامة أم يلتزمون قواعد ومبادئ قبيلتهم.

حتى في العالم الإسلامي اليوم، تحتفظ معظم الدول بإحساس قوي بالهوية والممارسات القبلية بغض النظر عن المناقشات المتأثرة بالغرب عن الديمقراطية وحقوق الإنسان. والمشكلات التي تواجهها الولايات المتحدة وحلفاؤها في أفغانستان والعراق ليست سوى نتيجة مباشرة لفشلها في إدراك أو فهم القاعدة القبلية المؤسسة للمجتمع فيهما. لقد افترض الأمريكيون أن الشعب ما إن يتحرر من حكامه حتى يتشوق بلهفة إلى الاندماج في النظام العالمي ويتبنى القيم العالمية، في حين تمسك السكان المحليون بفكرة متعينة وملموسة تشير إلى سير الأمور على مدى أجيال ودوامها على هذا المنوال. ولم تتوقف الولاءات والهوية القبلية المتجذرة في العمق، التي تبز على ما يبدو أفكار الدولة، عن مفاجأة الأمريكيين الذين لم يتمكنوا من رؤية حقيقة أن المفاهيم القبلية عن الولاء والشرف قادرة على البقاء والنماء في بيئة العولمة، ومنافسة الأفكار المستمدة لا من الغرب وحده بل من مبادئ الإسلام المتعلقة بالعدل والإحسان والتراحم أيضا. ومما أضاف إلى المواقف الإسلامية المعقدة فشل الزعامة - العديمة التأثير عموما - في توفير الوجهة الواضحة (كما أثبتت ذلك إجابات المبحوثين عن الاستبيانات)، حيث عبرت عن التشوش والارتباك الناتجين عن تداخل وتشابك وتوازي الهويات الدينية والقبلية في المجتمعات الإسلامية.

المرأة وظهور الإسلام

اعتاد محمد، الذي ينتمي إلى واحدة من أكبر القبائل في مكة، الانسحاب إلى قمة جبل أجرد وكئيب على بعد بضعة أميال من البلدة. كان يجلس في غار حراء ويفكر متأملا في طبيعة البشر والمجتمع المحيط به -مجتمع وثني خاضع للحروب والغزوات المتكررة، ولذلك يشدد على الشرف والثأر. ولأنه أبوي النسب، لم يظهر سوى قدر قليل من التعاطف مع النساء وعاملهن بقسوة ودون مبالاة وعدم احترام. كان وأد البنات ممارسة شائعة. وأشارت الكتابات الإسلامية إلى ذلك العصر باسم الجاهلية (أو الجهل وغياب العقل). كان محمد شابا حساسا شعر بقلق عميق من سلوك المجتمع. وفي عام 610م، حين بلغ

الأربعين، نزل عليه جبريل يأمره "اقرأ". وبعد ذلك عاد محمد من معتزله مرتبكا وفي حالة من عدم اليقين إلى الشخص الوحيد الذي يثق به في العالم كله، زوجته خديجة.

حين سمعت خديجة ما حدث لزوجها، أدركت أنها تشهد شيئا عجبا. فقد أثارت اهتمامها على الدوام طبيعته التأملية والرقيقة وتأثرت باستقامته ونزاهته وكماله إلى حد أنها أخذت المبادرة وعرضت عليه الزواج مع أنها تكبره بخمس عشرة سنة. كانت امرأة شجاعة أصابت نجاحا في تجارتها عن طريق القوافل التي كانت تعبر أراضي القبائل فيما يعرف الآن بالشرق الأوسط. بقيت أرملة مدة من الزمن وقررت أن تجرب حظها مع شاب لكن أملت أيضا أن توفر له الملاذ والقوة والصحبة.

عندما سمعت ما حدث في غار حراء، أصرت على أخذ زوجها إلى قريب لها، الراهب بحيرى العارف بالتراث المسيحي والكتاب المقدس. أكد الراهب للزوج والزوجة أن ما شهده محمد هو في الحقيقة وحي مماثل لذلك الذي تنزل على أنبياء اليهود والنصارى قبله. وأن الإسلام - الذي يعني "التسليم" إلى اللهو"السلام"على وشك أن يولد. أعلنت خديجة إيمانها بالدين الذي أوحي إلى زوجها، فأصبحت أول امرأة في التاريخ تدخل الإسلام.

وهكذا أصبح محمد نبيا - رسول الله. ولأنه التجسيد الحي لمثال الإسلام وفقا للقرآن، غدت نساؤه، خصوصا خديجة وعائشة، وابنته فاطمة، مركزا محوريا للتاريخ والمجتمع الإسلامي. فقد شاركن في نشر ونماء الدين لا كمجرد زوجات وبنات، بل كمحاربات ومستشارات وعالمات؛ حملن كلمة الإسلام وكن نماذج يحتذى مثالها للنساء. وتجد النساء المعاصرات الكثير من الدعم الشرعي من سنة النبي والنساء القريبات منه. على سبيل المثال، حين سئل النبي من أحق بحسن المعاملة، أجاب "أمك"[13]. وكررها ثلاثا، للإشارة إلى أن المسلم الصالح لا يأمل الفوز برضى الخالق إلا بخدمة الأم ونيل رضاها. وورد عن النبي أيضا قوله "الجنة تحت أقدام الأمهات"[14].

تعد خديجة شخصية مهمة في التاريخ الإسلامي لسبب آخر. فهي أم فاطمة، التي ستنجب الحسن والحسين. وسيلقى الحسين الشهادة التي ستتردد أصداؤها في العصر الحديث. إذ إن مقتله في كربلاء عام (680م)، مثل إحدى لحظات تاريخ الإسلام المؤثرة

في التطورات اللاحقة، وقارنه بعض المسلمين بصلب المسيح في الديانة المسيحية. فقد قتل الحسين ونفر قليل من أصحابه وآل بيته في معركة تحدى فيها طغيان الخليفة الحاكم. وشكل الأئمة المتحدرون من فاطمة نسبا "مقدسا" يتصل بالنبي. وصحيح أن السنة والشيعة يجلون هذا النسب (آل البيت)، إلا أن الشيعة يبالغون في احترامه وإجلاله. وفي الحقيقة فإن جميع أئمة الشيعة البارزين متحدرون من ذرية النبي.

كانت عائشة، زوج الرسول، وابنة صاحبه المقرب أبي بكر، تصغره في العمر كثيرا، وجمعتها به علاقة حماية ورعاية وحب وعطف وحنان. عرفت عائشة بقدرتها على المزاح مع النبي بل إغاظته خلافا للجميع. ونقلت العديد من أحاديثه إلى أجيال من العلماء بعدها. من الأحاديث التي نقلتها عائشة حديث يؤكد المعاملة الرحيمة للنساء: "أحسن المؤمنين إيمانا وأكرمهم خلقا ألطفهم بأهله"[15]. وعدها المسلمون سلطة مرجعية وشرعية، فإذا اختلف الصحابة في مسألة، كثيرا ما كانوا يأتون إليها لتوضيحها. وهكذا أصبحت مرجعية مفتاحية لميراث النبي الروحي والسياسي بعد موته، بل قادت معركة حربية ضد علي زوج فاطمة.

الحجاج الشيعة القادمون من إيران يزورون المسجد الأموي في دمشق الذي يضم مقام الحسين، حفيد الرسول. أثر استشهاد الحسين في كربلاء تأثيرا كبيرا في التطورات التاريخية اللاحقة وفي الثقافة الشيعية.

حـين توفي الرسول، خلفه صاحبه أبو بكر، الذي انتخب أول خليفة في الإسلام. بعض الشيعـة يعتقـدون أن عليـا أحق بخلافة النبـي؛ ولا يأبهون لعائشة، بل ينشـرون الأقاويل والإشاعات عنها أحيانا. وبالمقابل يجلها السنة وتبقى في نظرهم واحدا من النماذج التي يحتذى مثالها. حوصرت النساء في صدر الإسلام بين السلوك الإسلامي المثالي والمواقف القبليـة التقليدية تجاه النساء. وبقـي التوتر شديدا بين المثـال الإسلامي والواقع القبلي منذ ذلك الحين، وكان أكثر إثارة وتأثيرا في المجتمعات الريفية.

الشرف والعار

في ظهـيرة يوم قائظ من أيام حزيران/ يونيـو 2002، قام ثلاثة رجال مسلحين من قبيلـة ماستوي في مظفرغـاره، إحدى المناطق النائية في مقاطعـة البنجاب في باكستان، بمهاجمـة شاب من قبيلة تاتلا اسمه شكور، وجروه تحت أشعة الشمس اللاهبة إلى حقل مـزروع بالقصب. لم يستطع الشاب مقاومة الرجال الأقوياء فصرخ طالبا النجدة لكنهم تمكنوا منه واغتصبوه.

كانـت مختاران ماي، شقيقة شكور الكبرى ومدرسة القـرآن لأطفال قبيلة ماستوي، قـد سمعـت أن أخاها في خطر فركضـت يائسة تطلب النجدة من شيـوخ قبيلتها. ومثلما هـي الحال غالبا في أرياف باكستان، كان مخفر الشرطة يبعد أميالا عن المكان ولا يصله بالمنطقة سوى طرق طينية رديئة.

بدأ الآن أفراد قبيلة تاتلا التي هي أصغر وأضعف يحتشدون، تماما كما فعل رجال قبيلة ماستوي القوية. اتهمت قبيلة ماستوي شكور بمقابلة إحدى نسائها علنا ومن ثم إلحاق العار بالقبيلة برمتها. واتهم أيضا بالزنا، وهي جريمة عقوبتها الموت وفقا للأعراف القبلية. ظل شكـور يصارع الرجال الثلاثة حتى المساء. وحـين وصل رجال الشرطة أخيرا ألقوا القبض عليـه لا على مهاجميه، واقتادوه إلى المخفر المحلي واتهموه بارتكاب الفعل المنافي للحشمة. ولأن لقبيلة ماستوي نفوذها المؤثر في المنطقة قبلت الشرطة نسختها عن القصة.

اقـترح شيوخ قبيلة تاتلا تسوية مع شيوخ ماستوي، قائمة على زواج شكور من الفتاة، وزواج مختـاران من أحد رجال ماستوي لمنع مزيد من أعمال العنف، وذلك وفقا للعادات

والتقاليد القبلية. بعض أفراد قبيلة ماستوي قبلوا الاقتراح على ما يبدو. واستمر النقاش حتى المساء، وعاد الناس إلى بيوتهم لمزيد من التفكير في القضية.

وحين كانت المفاوضات تجري على قدم وساق في منطقة ماستوي، قام عبد الخالق أحد شيوخ قبيلة ماستوي، بإجبار مختاران تحت تهديد السلاح الذي يحمله على الدخول إلى منزل قريب أرضيته من الطين، ثم اغتصبها بمساعدة رجلين آخرين، في حين كان والدها وعمها يحاولان يائسين الدخول ووقف الجريمة، لكن منعهما من ذلك رجال آخرون من قبيلة ماستوي. وبعد ساعة من هذه المحنة، دفع الرجال المرأة خارج المنزل، لتواجه المتفرجين المصدومين والمذهولين، بثيابها الممزقة التي كشفت عن جسمها المثخن بالكدمات والجروح. وفي علامة أخيرة على الإذلال، رمى الرجال ملابسها الداخلية أمام الباب. حاول أبوها سترها قدر المستطاع وأسرع عائدا بها إلى منطقة قبيلة تاتلا.

في يوم الجمعة ذاك، أدان إمام المسجد جريمة الاغتصاب في خطبة الصلاة، ثم دعا صحفيا إلى مقابلة والد الضحية وشجع عائلتها على التقدم بشكوى رسمية ضد المغتصبين. وبخلال بضعة أيام، احتلت القصة عناوين الأخبار في باكستان، وسرعان ما شاعت وانتشرت بنسخ مختلفة. وبعد قرابة أسبوعين تناولت هيئة الإذاعة البريطانية القصة (3/7/2002)، وبعد بضعة أيام أوردتها مجلة "تايم"، ودعا قاضي المحكمة العليا في باكستان "اغتصاب مختاران أبشع جريمة ترتكب في القرن الحادي والعشرين". وفي الخامس من تموز/ يوليو، أعلن الرئيس مشرف أن مختاران ستتلقى تعويضا بقيمة نصف مليون روبية (8 آلاف دولار).

خرجت مختاران من الحادثة رمزا لمحنة المرأة. واستخدمت مال التعويض لبناء مدرستين، واحدة للبنات وأخرى للصبيان. ولم يكن هناك مدرسة للبنات في قريتها من قبل، وعلمتهن بنفسها القراءة. وعدها المتبرعون الغربيون أيضا رمزا شجاعا لحقوق المرأة ودعموا برنامجها التعليمي.

حكمت محكمة (مختصة بقضايا "مكافحة الإرهاب" و"الترهيب الجماعي") على الرجال الذين قاموا باغتصاب مختاران وأولئك المتآمرين معهم بالإعدام. وهي نوع جديد من المحاكم أنشئت بعد الحادي عشر من سبتمبر وعدها الكثيرون أداة تسيء

الحكومة استخدامها. حكم على الرجال الستة بالإعدام، لكن محكمة أعلى سلطة نقضت الحكم، وما زالت القضية في أروقة المحاكم حتى الآن.

بعد مرور ثلاث سنوات بالضبط على الحادثة، دعيت مختاران إلى لندن كضيفة خاصة على منظمة العفو الدولية. لكن أبلغت في المطار إنها موضوعة على لائحة الممنوعين من السفر السيئة السمعة في باكستان، التي تمنع الباكستانيين من السفر إلى الخارج وتستخدمها الحكومة أداة لترهيب مواطنيها.

وفي مؤتمر صحفي خلال زيارة للرئيس مشرف إلى نيوزيلندا، لفت الصحفيون انتباهه إلى المسألة، فارتكب أولى أخطائه في مجال العلاقات العامة حين ذكر أنه مسؤول شخصيا عن منع مختاران من السفر لأن منظمي الرحلة "انتقدوا باكستان". وأضاف مهاجما مضيفيها بوصفهم "عناصر هامشية مغربنة"، "يماثلون في السوء المتطرفين الإسلاميـ " حسب رأيه. وحين أدانت "نيويورك تايمز" الأمريكية و"ديلي تايمز" الباكستانية بشدة معاملة مختاران في سلسلة من المقالات، تراجع مشرف ووضع الرسالة التالية على موقعه الخاص على الويب: "مختاران حرة في الذهاب أنى شاءت، ولقاء من تريد، وقول ما تشتهي". بل منحها وساما تقديرا لشجاعتها وبسالتها.

لكن بعد أيام قليلة، خلال زيارة إلى مقر الأمم المتحدة في نيويورك، تراجع مشرف مرة أخرى عن موقفه. ففي مقابلة مطولة مع صحيفة "واشنطن بوست" (13/9/2005)، أنكر حالات الاغتصاب في باكستان بعناد مغثٍ، مشيرا علنا إلى أن النساء يرتبن أمر اغتصابهن بأنفسهن: "أصبحت القضية مرتبطة بالنهم بالمال. فالكثيرون يقولون إذا رغبت في السفر إلى الخارج والحصول على تأشيرة دخول إلى كندا أو الجنسية فيها، أو التحول إلى مليونيرة، فعرضي نفسك للاغتصاب". لكن مشرف أنكر أنه تلفظ بمثل هذه الملاحظات، بعد أن أدرك على الأرجح بعدها عن الذوق حين أدينت بوصفها مخزية وشائنة. وهذا ما دفع "واشنطن بوست" إلى وضع تسجيل صوتي للمقابلة على موقعها على الويب، وأثبتت أن مشرف نطق بهذه الكلمات بالحرف[16]. وكأنما لتوجيه مزيد من الانتقاد والتوبيخ والتعنيف إلى مشرف، اختارت مجلة "غليمور" الأمريكية مختاران "امرأة العام". ونشرت مذكراتها بعنوان: "باسم الشرف: سيرة حياة" (2006)[17].

في الوقت الذي كانت فيه حكاية مختاران تحتل عناوين الأخبار العالمية، وقعت حادثة اغتصاب أخرى شملت القبائل والمفاهيم القبلية عن الضيافة والشرف، والصدام مع الأنظمة الحديثة، وراحت ضحيتها امرأة في الثانية والثلاثين من العمر تدعى شادية خالد. على السطح بدت شادية مختلفة اختلافا كليا عن مختاران. فقد كانت متعلمة ومثقفة تحمل شهادة في الطب وأرادت خدمة المناطق النائية من باكستان التي تعاني من قلة عدد الأطباء - خصوصا الطبيبات - وبعد المسافة التي تفصل بينهم. وعينت في مقر مصنع النفط الباكستاني في سوي في إقليم بلوشستان، معقل قبيلة بوغتي الشهيرة.

في منتصف ليلة الثاني من كانون الثاني/ يناير 2005، استيقظت شادية على كابوس. فقد وجدت أمامها رجلا يحاول خنقها: "بدأ يضغط على عنقي كي لا أتنفس.. ثم لف سلك الهاتف حول رقبتي.. وضربني على رأسي بسماعة الهاتف.. ثم أخذ غطاء الصلاة وعصب عيني وربط معصمي بسلك الهاتف، ثم ألقاني على السرير. حاولت مقاومته بكل ما لدي من قوة لكنه اغتصبني". وظل الرجل طوال الليل يشاهد التلفزيون دون مبالاة بين نوبات الاعتداء على شادية وتباهى بصلاته القوية مع الجيش. في صبيحة اليوم التالي تمكنت شادية من الوصول مترنحة إلى جناح الممرضات؛ واندفع مسؤولو المنشأة إليها عندما سمعوا الحادثة. ثم حذروها من مغبة الحديث عن المسألة أمام أحد، لأن ذلك لن يؤدي إلى تدمير سمعتها فقط بل يمكن أن تعتقل وتحاكم وفقا لقوانين الزنا السيئة السمعة في باكستان، والمنحازة انحيازا سافرا ضد النساء. وسرعان ما حقنت بمهدئ ونقلت إلى مستشفى مختص بالأمراض النفسية في كراتشي.

حين بدأت قصة شادية خالد تتسرب خارج الأوساط الرسمية، تمثل التحدي أمام مشرف في عدم ربطها مع قصة مختاران، التي أصبحت جزءا من الأخبار العالمية. ووضع مسؤولو مشرف شادية وزوجها تحت الإقامة الجبرية مدة شهرين اثنين. وأطلقت حملة لتلطيخ سمعتها، وسرت شائعات تتحدث عن أنها امرأة منحلة وربما عاهرة. وما زاد الطين بلة أن حماها (والد زوجها) جمع حشدا من الغوغاء وهددها بالقتل لأنها ألحقت العار باسم الأسرة. وحاولت شادية الانتحار من فرط اليأس والقنوط.

حـين وجدت الحكومة أن قصـة شادية بدأت تتسرب، شجعتها علـى مغادرة البلاد، وهددتهـا هي وزوجها بأنهما سيختفيان ولن يعثر أحد على جثتيهما إن هي تكلمت. غادر الزوجـان إلى لنـدن، ولم يتمكنا مـن جلب ابنهما، الـذي أمسكت بـه السلطات كضمان ورهينـة. وجـدت شادية شقة من غرفـة واحدة في حي فقير في لنـدن وطلبت اللجوء إلى كنـدا، حيـث يقيم بعض الأقربـاء والأصدقاء. لكـن كندا رفضت الطلـب. لم يختتم بعد الكابوس الجاثـم على صـدر شادية: "أظل يقظى طـوال الليل، أفكر: لمـاذا أنا؟ دمرت حياتي المهنية وحياة زوجي. لا أرى ابني.. لو مت كان ذلك أفضل".

في حين بقيت شادية في حالة من عدم اليقين لا تدري ما تفعل، وتتأمل خرائب حياتها، كان بعض الشرفاء في بلوشستان يتبنون قضيتها. ومع أنها لم تكن من الإقليم إلا أنها كانت في نظـر شيوخ قبيلة بوغتي المهيمنة على منطقة سوي في بلوشستان ضيفة خاصة وأرادت خدمـة نسائهـم. لذلك كان من واجبهـم حمايتها وفقا لمفهومهم عـن الشرف والضيافة (وهـذا يذكر بسلوك وتصرفات الفرسـان والنبلاء في الحقبـة الرومانسية التي صورت في الأدب وكتـب التاريخ الغربي). طالب شيـوخ القبيلة بالعدالة في قضية شادية ومعاقبة المجـرم وفقا للقانون القبلي. ولأن المتهم في الجيش الباكستاني - وتحدثت الشائعات عن صلاته بأعلى المستويات، كما تباهى أمام شادية - ساعد المسؤولون النافذون على عرقلة القضيـة. وهنالك مسألة تفصيلية مهمة تربض في خلفيـة المشهد وتتعلق بالنزاع القديم بـين قبيلة بوغتي، المطالبة بحصة أكبر من عائدات النفط والغاز اللذين يستخرجان من أرضها، وبين الحكومة الباكستانية.

وهكذا، حين بدأت القبيلة تطالب بالعدالة، تعمدت السلطات المحلية تحريف مطالبها وتصويرهـا على أنها ذريعة تتخذها لتحدي الحكومة. ومع تعثر المفاوضات بين السلطات المحليـة والقبيلة، قرر زعيمها، نواب أكبر بوغتي، تولي الأمر بنفسه[18]. فطالب بتحقيق العدالـة ومعاقبة المجرم الذي ألحق العـار بتقاليد القبيلة. واتخـذت الحكومة إجراءات مشـددة لاحتـواء تدخل نواب عبر "الاستيـلاء" على منزله وإصدار مذكـرات باعتقاله، فهرب إلى التلال النائية.

وحـين هاجمت السلطـات الباكستانية قبيلة بوغتي، وعد الرئيـس مشرف بأن رجال القبائل "لـن يعرفوا ما الذي يصيبهم": وخطط لاستخـدام أحدث الأسلحة التي حصل

عليهـا من الولايـات المتحدة للحرب على الإرهـاب. وردا على ذلك هاجـم رجال القبيلة القطـارات وخطوط السـكك الحديدية والقواعـد العسكرية المؤقتة. لكـن مشرف التزم وعـده. إذ لم تعـرف القبيلة مـا الذي يصيبها حين قتـل نواب مع عدد مـن أفراد عائلته وقبيلتـه في غارة جوية شنهـا الجيش في آب/ أغسطس 2006. فقـد أمطرتهم طائرات اف 16 والحوامات الحربية الأمريكية الصنع بالقنابل العنقودية والفسفورية وغيرها من المـواد الكيماوية بعد أن عرفت مكانهم عـبر اعتراض هاتفه المحمول. في النهاية، وصلت تقانـة العولمة إلى رجل يقدّر في سلوكه ويمثل في مظهره فخر واعتزاز وهوية القبيلة، رجل لقب ذات مرة بـ"أسد بلوشستان"[19].

وفي الاحتجاجـات وأعمـال الشغب والخطب النارية التي أعقبـت ذلك، سارع زعماء القبيلـة إلى ربط الأسلحة الأمريكية بمحنتهم: "هـذه الأسلحة والمساعدات التي قدمتها الولايات المتحدة إلى باكستان لمحاربة القاعدة والطالبان، يستخدمها الجيش الباكستاني ضـد الوطنيين في بلوشستان"، مثلما اشتكـى مينغال، عضو جمعية إقليم بلوشستان[20]. ومـن المؤكـد تفجر المزيد من أعمال العنـف لأن رجال القبائل استعـدوا للانتقام والثأر. وأذهلت ردة الفعل حكام باكستان العسكر.

تبنـى مشرف وجميع جنرالات الجيش تقريبا العولمة لا بسبب أن معظمهم أتوا من المدن الكبيرة مثل كراتشي ولاهور فقط، بل لأنها جلبت إلى الجيش منافع ومكاسب مهمة منذ الحـادي عشر من سبتمبر، خصوصا الحوامات والدبابـات وغيرها من الأسلحة الجديـدة. وقدروا أهميـة مطاعم الوجبات السريعة الأمريكيـة، والإنترنت، والروابط مـع الغرب التي انتشرت في مدن باكستان خلال السنوات القليلة الماضية. لكنهم كانوا انتقائيـين في مظاهـر وجوانب العولمة التـي أرادوا تبنيها: فقد سرهـم الحصول على بعض المكاسـب الاقتصادية والعسكريـة والثقافية، لكن سرهم بالقـدر نفسه تجاهل الجوانب الإيجابية المهمة التي يرغب الغرب في ترويجها وتشجيعها، مثل الديمقراطية وحقـوق الإنسـان. ففي نظر هؤلاء العسكر تمثل العولمة فرصـة لمحاربة الشكل المتخلف والراكـد من الإسلام، كما تمثله القبيلة، مـن أجل مجتمع إسلامي مزدهر وحديث في المستقبل.

في أفضل الأحوال، لا يملك الرئيس مشرف سوى معرفة محدودة بالسكان القبليين الذين تعامل معهم في قضيتي مختاران وشادية. ولأنه نشأ وترعرع في مدينة كبيرة، توقع أن يعهد الطرف المتضرر إلى الشرطة المحلية أمر التعامل مع المشكلة وحلها. تلك هي الطريقة الحديثة للعمل في الدولة الحديثة. ومع أن السكان القبليين والحضريين يعيشون متجاورين في باكستان إلا أن عوالم تفصل بينهم على صعيد العادات والثقافة والتقاليد. في حالة مختاران، اعتقد رجال قبيلة ماستوي أنهم باغتصابها يستعيدون شرفهم الذي خسروه حين التقى شقيقها بإحدى فتيات القبيلة. أما في حالة شادية، فقد تبنت القبيلة قضيتها، وساوت بين شرفها وشرف أفرادها، لأنها كانت ضيفة في "مضاربهم" عندما وقع الحادث.

على عكس العلاقات القبلية، تعتمد العلاقات المدينية أساسا على التفاعلات والتعاملات المالية. الأحياء مختلطة ومتداخلة وليس ثمة طريقة لمعرفة وتحديد من يسكن في البيت المجاور. ومع الهجرة من الأرياف والمناطق القبلية، تبدأ الأصول العرقية والاثنية بالاضمحلال وتبهت الفوارق بينها. فكل مهاجر إلى المدينة يتعلم بسرعة طرقا جديدة للتعامل مع الحياة: كيف يتاجر ويتصرف ويتفاعل مع خليط الناس. بالمقابل، تستمر الحياة القبلية على طول الخطوط التقليدية المحددة ذاتها. والقرارات المهمة ما زال يتخذها الزعماء القبليون. والتعليقات التي نشرت في كراتشي ولاهور ربما تدين عاداتهم وتقاليدهم بوصفها حواجز تعرقل مسيرة التقدم، لكن رجال القبائل يقدمون الحجة على أن العولمة تهديد داهم ومحفوف بالخطر. فمع تدخلها الاقتحامي وزخمها العنيد، تهدد جوهر هويتهم التقليدية وأسلوب حياتهم. ومع أن القواعد والأعراف القبلية تشهد تغيرا في مختلف بلدان العالم الإسلامي في مواجهة قوى العولمة، إلا أنها ما تزال مؤثرة في السلوك. وفي حالتي مختاران وشادية، اعتمد مصير كل منهما على تفاعل مختلف تفسيرات المجتمع للشرف والعدالة، خصوصا ما يتعلق منها بالمرأة.

من الملاحظ غياب الدين وتأثيره عن نقاش هاتين الحالتين حتى الآن. وفي الحقيقة، أظهرت كل منهما انهيار المبادئ المركزية للإسلام: العدل والإحسان واحترام طلب العلم والمعرفة، والتعامل النبيل والرحيم مع النساء والرفق بهن. فكلتا المرأتين تجسد

obeikandl.com

مثـالا يثير الإعجاب لطلب العلم: مختاران مدرسة وشادية طبيبة، مع أن ذلك يبقى أمرا غـير عـادي فيما يتعلق بالمـرأة. لكن تسود عـادات القبيلة وتنتصـر في الحالتين، خلافا لتعاليـم الإسلام. في الوقـت ذاته، تخرق القواعد والأعراف القبليـة إلى حد ما في حالة مختـاران، لأن القبائل المعنية هنا تعيش في البنجـاب، حيث تراجع تأثير العادات القبلية ومثـل الشرف نتيجة تدفق الجماعات والمجتمعـات التي استقرت هناك، والتدخل الأوسع للعـالم الخارجي، وتأثير القيـم الأجنبية. وخلافا للقبائل التي هـي أشد عزلة "ونقاء"، مثـل قبيلة بوغتـي في بلوشستان أو قبائل وزيرستان، فإن القبائل الأخرى قبائل بالاسم لا بالممارسة.

حـين ناقشت قضيـة مختاران مع فاروق ليغـاري، وهو زعيم قبلـي يعيش في المنطقة التي وقعت فيها الحادثة ورئيس باكستان السابق، شرح قائلا: "ما رأيناه في هذه القضية معـادلا للغوغاء الذي كانوا يشنقون المتهم دون محاكمة أو المجموعات التي كان يحضرها 'العمدة' لفرض القانون في الغرب الضاري الأمريكي. لقد طبق هؤلاء القانون بأيديهم. إنه انهيار للنظام القبلي الذي لم يكن ليؤيد أبدا إلحاق العار بالنساء، وفشل ذريع لنظام العدالة على يد الشرطة". كنا نتحدث في واشنطن في صيف عام 2006. ولأنه مدرك لميل وسائل الإعلام الغربية إلى ربط مثل هذه القضايا تحديدا بالدين الإسلامي، قال مؤكدا: "القضية لا علاقة لها بالإسلام".

معضلـة مشـرف الأخرى في مواجهـة القبائل فيمـا يتعلق بهاتـين القضيتين انبعثت مـن اعتماده الاقتصادي والسياسـي على الولايات المتحدة. فالروابـط مع العولمة أعطت مشـرف مظهر اللاعب الرئيس في "تحديـث" باكستان، حيث استقبل تعاطفه في البداية مـع مختاران والتعويض المالي الذي قدمه لها بالاستحسان والقبول من العالم الخارجي. لكـن في نظر رجال القبائل، خسرت مختـاران شرفها، ولا يمكن لتعويض مادي من أعلى مراتب الدولة أو كلمات التعاطف من الصحفيين استعادته. في حالة شادية، مكنت العولمة مشـرف مـن التفوق على قبيلة بوغتي، حيث يمكن بسهولـة، في بيئة ما بعد الحادي عشر مـن سبتمبر، تصويرها كمجموعة داعمة للقاعدة الموجودة في كل مكان وزمان وللطالبان الحاضرين دوما وأبدا. وبسبب معرفة الغرب المحدودة بكيفية تمايز المجتمعات في العالم

الإسلامي، ستبدو ثورة قبيلة بوغتي - في وزيرستان خصوصا تعبيرا آخر عن عودة وانبعاث الطالبان.

لكن ما يحظى بأهمية استراتيجية حيوية الإبقاء على علاقة ودية مع قبائل بلوشستان وعلى حالة من الهدوء السياسي. فبمساعدة الصين، استطاع مشرف تطوير غوادار، وهي بلدة صغيرة للصيادين على ساحل بحر العرب، لتصبح ميناء لبلوشستان، ونقطة انطلاق لمعبر بري إلى أفغانستان ووسط آسيا. وستكون غوادار أيضا منفذا محسنا عبر البحر إلى العالم العربي. ويمكن للتجارة والواردات من جميع أرجاء العالم عبر غوادار تغيير لا الاقتصاد المحلي فقط بل التأثير في الاقتصاد الوطني أيضا. ومع انتشار ثورة قبيلة بوغتي وعرقلة طرق المواصلات في بلوشستان، تتزايد شكوك المستثمرين المحتملين في هذه الإمكانات.

في الوقت ذاته، تعد الولايات المتحدة وحلفاؤها الغربيون دعم مشرف الآن أكثر أهمية من أي وقت مضى. فالحرب في العراق وعلى الحدود الشرقية لأفغانستان لا تسير على ما يرام، وعاود الطالبان الظهور وأعادوا تجميع قواهم على جانبي الحدود الأفغانية. وفضلا على ذلك كله، يتفاقم التوتر فيما يتعلق ببرنامج إيران النووي، حيث صممت الولايات المتحدة على تعطيله. ولذلك، تحظى الأحداث في بلوشستان، التي تشترك في حدود طويلة مع إيران، باهتمام استراتيجي. وفي الحقيقة، تجمع قبيلة بوغتي روابط قبلية قوية مع قبائل البلوش الأخرى على الحدود الإيرانية. فإذا انتشرت ثورة البلوش، لن تجد القوات التي تتحرك عبر بلوشستان - أمريكية كانت أم باكستانية - ممرا سهلا إلى الحدود، وهذا ما يجعل من مشرف حليفا عن غير قصد للإيرانيين. أما مصير الإقليم، والأزمة مع قبيلة بوغتي، وقضية شادية، والحرب على الإرهاب، فهي متداخلة ومتمازجة كلها. وستؤثر نتيجة كل منها على البقية وستكون نذيرا لما سيحدث بالمنطقة.

القبائل المسلمة في أفريقيا

للإسلام حضور قوي في أفريقيا، التي تضم اليوم ربع المسلمين في العالم. وهو الدين المهيمن في معظم النصف الشمالي من القارة. وعلى مر القرون، تداخلت الزعامات والعشائر والقبائل وامتزجت مع الدين وأوجدت هوية إسلامية محلية قوية ومؤثرة.

وحقيقة أن النبي نفسه شجع المسلمين الأوائل الذين اضطهدوا في مكة على الهجرة إلى مملكة الحبشة المسيحية (إثيوبيا الحالية) كانت بادرة طيبة للأفارقة والمسيحيين في المجتمع المسلم. ونظرا لنجاح الإسلام والمسيحية في تحقيق اختراقات مهمة في القارة، فإن المبادئ اللاهوتية الإسلامية والمسيحية امتزجت في البنى القبلية الاجتماعية الموجودة، كما حدث في الشرق الأوسط وجنوب آسيا. أما التوليفة التي تجمع الإسلام والثقافة القبلية فتتضح بوجه خاص في نيجيريا والصومال - وكلتاهما من الدول الإفريقية المهمة، تقع الأولى في غرب القارة والأخرى في شرقها وتردد اسمها كثيرا في الأخبار خلال السنوات القليلة الماضية.

نيجيريا دولة إفريقية عملاقة يبلغ عدد سكانها 130 مليونا وتعد القوة الاقتصادية المحركة لمنطقة غرب إفريقيا وتتفوق في عدد سكانها المسلمين على أي بلد عربي آخر. يمكن مشاهدة التداخل بين النماذج الثلاثة التي تحدثنا عنها في نيجيريا أيضا، بدءا بالمتصوفة (نموذج أجمر) الذين أدوا دورا فعالا في التجارة النيجيرية على مدى مئات من السنين، وانتهاء بمسلمي نموذج عليكره، مثل الرئيس ساني اباتشا (وهو ديكتاتور عسكري فاسد تدرب في الغرب). قبل وقت طويل من إنشاء دولة نيجيريا الحديثة، وحتى قبل الحقبة الاستعمارية، شجعت شبكات الطرق الصوفية المنتشرة في معظم مناطق شمال إفريقيا التنقل والتجارة التي ازدهرت على أساس الأمانة والنيات الطيبة وحسن الجوار. وفي هذه الحالة، تناسبت القواعد والأعراف القبلية المتعلقة بالضيافة والشرف مع مفاهيم المتصوفة عن القبول والتسامح والثقة.

لم تتمكن نيجيريا الحديثة من حل مشكلات مواطنيها، وانغمس قادتها وزعماؤها في الفساد المستشري واشتهروا بسوء الإدارة. في عام 1999، سقطت ديكتاتورية اباتشا، وفتحت البلاد أمام أشكال أخرى من الحكم للمرة الأولى منذ الاستقلال عن بريطانيا. وفي البيئة السياسية الجديدة، بدا نموذج ديوباند هو الشكل المهيمن من الإسلام حين صوت المسلمون في شمال نيجيريا على الفور لمصلحة تطبيق الشريعة، كردة فعل - جزئية - على الظلم الاقتصادي وتفكك المجتمع الموبوء بالجريمة والفساد المتفشي على أوسع نطاق. تمتلك نيجيريا ثامن أكبر احتياطي من النفط في العالم، لكن النيجيريين لم

يأخـذوا سـوى القليل من الثروة الناتجـة عنه: 70% من السكان يعيشـون على مبلغ يقل عـن دولار في اليوم. وكثيرا ما تخطـف الميليشيات في الجنوب العاملين في شركات النفط وتطالب بالفدية لإطلاقهم من أسرهم.

مـع أن نيجيريا متخلفـة اقتصاديا، إلا أن مناطق المسلمين في الشمال تعاني أكثر من غيرهـا؛ فمعدلات البطالة والافتقار إلى التعليم والفقر أعلى في الشمال مقارنة بالجنوب المسيحـي غالبـا، الذي تمكن من جني ثمـار العولمة. ووضع تقرير التنميـة البشرية الذي أصدرتـه الأمم المتحـدة عـام 2006، ولايتي ايدو ودلتا (في الجنـوب) على قمة لائحتها المتعلقـة بنيجيريـا، حيث سجل مؤشـر التنمية البشرية 0.631. وبالمقابـل، سجل مؤشر التنميـة البشرية في ولاية بورنو الإسلاميـة في الشمال 0.042[21]. فإذا كانت ايدو ودلتا ولايتـين منفصلتـين، كمـا يلاحظ التقريـر، فسوف تحتـلان المرتبة التاسعـة في العالم، متفوقتـان في ذلـك علـى البلدان متوسطـة الدخل. هـذا النوع من التفـاوت الاقتصادي الصـارخ داخـل البلدان الذي يمـزق المجتمعات إربـا إربا ليس سوى علامـة فارقة تميز العولمة.

أصـدرت المحاكـم الإسلامية العديـد من الأحـكام الخلافية، كان لعـدد كبير منها علاقـة بقواعد الشرف القبليـة والرد على العولمة تفوق علاقتهـا بالإسلام ذاته. في عام 2002، تركـز انتبـاه العالم علـى الحكم في قضيـة أمينة لاوال، وهي امـرأة في الحادية والثلاثـين من قبيلة هاوسا، التي حكم عليها بالرجم حتى الموت بتهمة إنجاب مولود غير شرعـي. لم يتقدم أي شاهـد في قضية أمينة، مع أن الشريعـة تقتضي وجود أربعة شهود عيـان لإثبات فعل الزنـا. لكنها وجدت نفسهـا مذنبة بإلحاق العـار بقبيلتها التي تفاخر بتقاليدهـا، وسوف تعاقـب لأن عادات القبيلة تتفوق على/ بل تبطـل قوانين الشريعة. في هـذه الأثنـاء، استطاع والد الطفل (الذي لم تجمعه بها رابطـة زواج شرعي) النجاة من العقـاب. خلي سبيل أمينة في عام 2004، بسبـب حملة وسائل الإعلام الدولية الكاسحة التي شنتها شخصيات أمريكية شهيرة مثل اوبرا وينفري.

تخـترق المسيحيـة والإسـلام والأرواحيـة الحدود القبليـة والاثنيـة في نيجيريا. وفي حـين عاشت مختلف الجماعات معا بسلام على مـر القرون، إلا أن التوتر بين المسيحيين

والمسلمين تفاقم في السنوات الأخيرة، وأدت الصدامات إلى وقوع ضحايا وتدمير دور العبادة. وهي متجذرة في العداوات القبلية كما في الخلافات الدينية ويذكي نارها الظلم الاقتصادي والإدراك بأن الإسلام يتعرض للهجوم من الغرب، مع أن من النادر أن تناقش وسائل الإعلام الغربية هذه العوامل.

العديد من الحالات التي تبدو وكأنها تقع في نطاق العنف الديني تستحثها فعلا عوامل أخرى، مثل حقوق ملكية الأراضي، كما في النزاع الطويل بين قبيلة الفولانيالمرتبطة بقبيلة الهاوسا التي تنتمي إليها أمينةوالتاروك. الفولاني قبيلة من البدو المسلمين، في حين أن التاروك قبيلة من المزارعين المسيحيين . في أيلول / سبتمبر 2001، قتل أكثر من ألف شخص في الصدامات التي وقعت بين بدو قبيلة الفولاني المسلمين ومزارعي قبيلة تاروك المسيحيين في ولاية حوس. وفي أيار / مايو 2004، شن التاروك هجوما دمويا مدمرا على الفولاني في المنطقة ذاتها خلف أكثر من ستمئة قتيل وشرد ستين ألفا[22]. النزاع يدور غالبا على استخدام الأراضي؛ إذ يريد بدو الفولاني رعي قطعانهم على الأرض ذاتها التي يريد التاروك زراعتها. وفي الحقيقة، فإن العديد من الصراعات في نيجيريا وغيرها من بلدان إفريقيا تدور بين السكان المحليين والمهاجرين من القبائل الأخرى وليست لها سوى علاقة واهية بالدين.

الهجمات التي يشنها غير المسلمين على المسلمين في نيجيريا، مع أنها ليست مدفوعة أساسا بباعث الدين، أدت إلى انتشار إدراك مفاده أن الإسلام يتعرض للهجوم داخل نيجيريا، وهذا بدوره أدى، حين يقترن بإدراك أن الأمة تتعرض لهجوم عالمي من الغرب، إلى ارتفاع مستويات الغضب وخيبة الأمل بين مسلمي نيجيريا. في شباط/ فبراير 2006، قتل أكثر من مئة ونزح خمسون ألفا نتيجة أعمال الشغب احتجاجا على نشر صحيفة دنمركية رسوما مسيئة للرسول. أدى هذا الشعور بالحصار من الغرب والغضب على الظلم الذي يتعرض له المسلمون محليا إلى تعزيز وتقوية نموذج ديوباند في نيجيريا.

ينتشر النموذج في شرق إفريقيا أيضا. ومثلما استنهضت الفوضى في أفغانستان الطالبان، الذين وعدوا بتطبيق العدالة الإسلامية وتحدي أمراء الحرب في المنطقة، كذلك أفرزت الفوضى في الصومال جماعة إسلامية أخرى[23]. فبعد وقت قصير من

استكمال عملنا الميداني، بدأ استيلاء "الإسلاميين" على العاصمة الصومالية، مقديشو، يحتل عناوين الأخبار.

خلال السنوات المئة الماضية، حدثت انقسامات كبرى في صيغ وأشكال الممارسة الإسلامية السائدة في البلاد. ظهرت الصوفية أولا حين تجول المتصوفة في مختلف أرجاء البلاد سعيا وراء إقامة علاقات وثيقة وشخصية مع المقدس. وترجم انفتاحهم بطريقة جيدة في مجتمع تأثر بالتجارة والعادات الأجنبية. وأنتج الإسلام الصوفي في الصومال العديد من الشخصيات المحبوبة وأصبحت أضرحتهم مزارات كما هي الحال في أجمر.

ما زال التراث الصوفي حيا في الصومال. وحين سافر فرانكي إلى كينيا في كانون الثاني / يناير 2006، تحدث مع الصوماليين هناك عن مشروعنا، ووجد لدى العديد منهم "روحا شمولية استيعابية تقبل الآخر ولا ترى في الغرب عدوا". لكن يبدو أن نموذج ديوباند المحافظ في حالة مد ونهوض في حين يعاني نموذج أجمر جزرا وانحسارا. وبدأ هذا الأخير يفقد شهرته في الصومال في أواخر القرن التاسع عشر، مع الاستعمار الأوروبي ووصول البعثات التبشيرية المسيحية. في عام 1897، كما تقول الحكاية، مر رجل دين شاب مسلم اسمه سيد محمد عبد الله حسن أمام بناء لم يعرفه، كان محطة لبعثة تبشيرية كاثوليكية فرنسية. وحين تحير في الأمر، سأل جماعة من الصبية ينتمون إلى البعثة عن طائفتهم، فأجابوا: "طائفة الآباء". وبعد أن صدم بهذا الرفض للهوية الصومالية، استخلص أن الأوروبيين يحاولون تدمير الإسلام في الصومال وتغيير المجتمع القبلي إلى الأبد. حاول الشيخ محمد عبد الله حسن يائسا الفوز بتأييد صيغته المتشددة من الإسلام، وخطب في المساجد والشوارع أن المجتمع الصومالي يتعرض للهجوم ودعا الناس إلى النهوض وطرد "الكفار" الأوروبيين. وانتقد أيضا عادة شرب الخمر التي جلبها الأجانب معهم. ورد البريطانيون على خطاب الشيخ عبد الله حسن المعادي للأوروبيين ولقبوه بـ"الملا المجنون".

شعر العديد من المتصوفة أن الأوروبيين يمثلون تهديدا داهما لمجتمعهم وأقلقهم وجودهم في الصومال، على الرغم من صوفيتهم الاستيعابية التي تقبل الآخر. ومع استمرارا الشيخ محمد عبد الله في التجول في أرجاء البلاد وانتقاد الأوروبيين والبعثات

التبشيرية، اكتسب أيضا سمعة صانع السلام، حيث تمكن من إخماد النزاعات بين العشائر والطوائف، واشتهر بمواهبه الشعرية المدهشة. في منتصف عام 1899 أعلن الجهاد على المستعمرين المسيحيين. واستهدف البريطانيين وحلفاءهم الإثيوبيين على وجه الخصوص بوصفهم أعداء الصومال الألداء تقليديا. استمر التمرد حتى عام 1920، حيث استطاع البريطانيون أخيرا سحق مقاتليه، وتوفي الشيخ محمد نفسه بسبب مرض أصابه. وبعد الحرب، تكفل البريطانيون، في مسعى منهم لتجنب مزيد من المشكلات، بعدم التدخل في طريقة ممارسة الإسلام في الصومال. في عام 1960، توحدت أجزاء الصومال الخاضعة لسيطرة البريطانيين والفرنسيين والطليان في دولة واحدة مرتجلة، وفي عام 1969 استولى على السلطة قادة الجيش الثوريون برئاسة الجنرال محمد سياد بري

وتحت واجهة الشريعة، استندت إيديولوجية سياد بري السياسية إلى الفلسفة الماركسية، كحال العديد من الزعماء العرب في الستينيات والسبعينيات. وفي الحقيقة، انتسب العديد من الصوماليين في هذه الحقبة إلى جامعات مصر الناصرية. ومع أن قادة الحكومة الصومالية الجديدة تحدثوا عن إقامة دولة إسلامية، إلا أنهم قصدوا نموذج عليكره الذي يفصل الدولة عن الدين. ورأى الوطنيون الصوماليون في الشخصيات الروحية الإسلامية ورجال القبائل البارزين الذين احتجوا على الحكومة تهديدا لسلطتهم. وبعد أن حصل على دعم أولي من الاتحاد السوفييتي، تحول سياد بري إلى الولايات المتحدة وذلك حين قرر السوفييت أن إثيوبيا المجاورة حليف أكثر جاذبية. وثبت أن الولايات المتحدة حليف راغب في تقديم العون طوال الثمانينيات، مع أنها تخلت عن بري قرب نهاية حكمه، بعد سلسلة من أعمال القمع الوحشية، خلف إحداها 450 قتيلا من المسلمين الذين احتجوا عليه بسبب سجن زعمائهم الروحيين. وبعد أن خسر دعم الولايات المتحدة، أسقطته قوى "المتمردين" بسهولة عام 1991، وسرعان ما غرقت البلاد في مستنقع الحرب الأهلية.

في خضم الفوضى، انتقل أمراء الحرب إلى العاصمة واستولوا على معظم الجزء الجنوبي من الصومال. وظن المسلمون المحافظون أن إطاحة بري ستعبد الطريق إلى قيام دولة إسلامية، لكن شعروا أن الولايات المتحدة تمنع حدوث ذلك وتستهدف في

الحقيقـة إقامة قواعد عسكرية في البلاد. وحـين أصابت المجاعة الصومال عام 1992 وأرسلت معونات الغذاء والدواء تحت مظلة الأمم المتحدة ضمن "عملية استعادة الأمل"، تفاقمت حالة الفوضى والاضطراب في البلاد: عرقل أحد زعماء الحرب القبليين وصول معونـات الغـذاء لترسيخ تفوقـه في التصارع على السلطـة وأصبح يمثل بـؤرة المعارضة للولايـات المتحـدة، على الرغم مـن انتشار المشاعـر المعادية لأمريكا علـى نطاق واسع. لكن واجـه الأمريكيون غضب الأحزاب الإسلامية وأمـراء الحرب على حد سواء، حيث احتشدوا معا – وفقا للتقاليد القبلية – ورصوا الصفوف لطرد العدو الخارجي المشترك من أرضهم.

أخطأت الولايـات المتحدة في قراءة المجتمع القبلي وطريقة عمل السياسة في سياقه، فأرسلت مشاة البحرية (المارينز) للمساعدة على استعادة النظام وتقديم العون، لتواجه بالعـداء. وفي حادثة "إسقـاط حوامة البلاك هوك" الشهيرة عـام 1993، سحلت جثث الجنود الأمريكيين الذين قتلوا في تحطم الطائرة وسحبت في الشوارع. صور المشهد وبث في مختلـف أرجـاء العالم، وهذا ما دعـا الأمريكيين إلى التساؤل عـن سبب عزم الشعب الصومـالي علـى إذلال الجنود الأمريكيـين بهذه الطريقة المهينة في حـين أنهم يحاولون تقـديم المعونات الإنسانيـة إليه. الحادث سبب غضبا عارما في الولايات المتحدة على هذا الضعف في مجابهة العنف وأثر تأثيرا بالغا في السياسة الخارجية منذ ذلك الحين.

بحلـول عـام 1995، انسحبـت قـوات الأمم المتحدة والجنـود الأمريكيـون، وانزلق الصومال إلى حقبة جهنمية من الفوضى: كان أمراء الحرب وجنودهم يفعلون ما يريدون من قتل ونهب واغتصاب. في بعض الأحيان تعاونوا، لكن في معظم الأحيان خاضوا معارك ضاريـة قتل فيها العديد من المدنيين الأبريـاء، أو جندوا للقتال رغما عنهم. كان المجتمع غارقا في الظلم. المذنبون ينجون من العقاب، وغاب التراحم والحلول المنطقية والعقلانية للمشكلات، وانعدم الأمن والأمان. وغادر المواطنون دولة يطحنها الفقر المدقع، أو عاشوا في الأبنيـة المهجـورة أو في ملاجـئ مصنوعة من أغصـان الأشجـار أو الصفيح أو قطع الكرتون. ولم تكن المياه النظيفة متوفرة. في حين أوقفت معظم المساعدات الدولية بسبب أخطار العمل في المنطقة: فكثيرا ما قتل عمال الإغاثة أو خطفوا طلبا للفدية. إضافة إلى

ذلـك كله، ازدهـرت القرصنة على سواحـل الصومال بعد عـام 1991 وأصبحت مذاك منتشرة ومتفشية دون ضابط أو رادع.

الفوضـى في الصومـال في التسعينيات دفعت البلاد إلى أداء دور مركزي في الصراع المعـولم الناشئ حول الإسلام. فحين فجرت "القاعـدة" السفارتين الأمريكيتين في كينيا وتنزانيا عام 1998، اتهمت وزارة العدل الأمريكية بن لادن وتنظيمه باستخدام الصومال قاعـدة للهجـوم علـى السفارتين والتخطيـط للهجوم علـى مشاة البحريـة في الصومال عـام 1993. ثـم اتهمت "القاعدة" مجددا باستخدام الصومـال نقطة انطلاق للتفجير الانتحـاري في منتجع إسرائيلي على شاطـئ كينيا عام 2002، والهجوم بالصواريخ على طائـرة إسرائيلية، والتخطيط لتفجير طائرة تابعة للخطوط الجوية البريطانية في مطار كينياتا الدولي في نيروبي.

تحت حكم نظام سياد بري، خلط الإسلام أولا مع المفاهيم الاشتراكية ثم مع الأفكار الغربيـة في مسعـى لتحديث البلاد. وبذلك عـبر عن نموذج عليكره، وذلـك بالرغم من فسـاد النظـام وقصوره. ومنذ ذلك الحـين، جرت عدة محاولات فاشلـة لتشكيل حكومة وطنيـة. وفي كانـون الثاني / يناير 2004، وقع أمراء الحـرب والسياسيون اتفاقا لإنشاء برلمان جديد، انتخب لاحقا زعيم المتمردين السابق عبد الحي يوسف أحمد رئيسا للبلاد. لكن انعدام الأمن منع الحكومة الانتقالية من تثبيت أركانها في العاصمة.

مع استكمـال تخريب المجتمع، وانهيار القيم الأخلاقيـة، وانعدام الأمن، برز نموذج ديوبانـد كمصدر للأمل بالسلام والتـزام المبادئ الأخلاقية، تمامـا كما حدث في بداية القرن العشرين زمـن الشيخ محمد عبد الله. وبرزت صيغة الإسلام المحافظ و"النقي"، التـي تسعـى إلى تنظيم المجتمع وفقا للمثل الأعلى الذي جسـده النبي وصحابته في صدر الإسـلام، بمساعـدة منظمة عرفت باسـم "اتحاد المحاكم الإسلاميـة". ومثلما توحدت قبائل وزيرستان في مواجهة حكومة مشرف والولايات المتحدة، تمكنت المحاكم الإسلامية مـن توحيـد القبائل الصومالية التي فشلت تقليديا في العمـل معا منذ زمن الشيخ محمد عبد الله وحروبه على البريطانيين والإثيوبيين.

تبدو مثل وقيم نموذج ديوباند جذابة للشعب الصومالي، الذي يتعلق بأي قشة يجدها لتحقيق العدالة والأمن. إذ تعتقد القبائل والميليشيات الإسلامية أن السبيل الوحيد لعودة النظـام والحيـاة الطبيعية هو الحفـاظ على الاستقـلال الإقليمي عن الولايـات المتحدة والبلـدان الإفريقية الأخـرى، لاسيما إثيوبيا، وحتى الأمم المتحـدة. ولا يتوقع العديد من الصوماليين على الأرجـح حكومة دستورية جديدة في هذا الوضع اليائس، ولا يستطيعون بسهولة العثور على طريق الخلاص عبر المقدس.

وبـدلا مـن ذلك لجـؤوا إلى المحاكـم الإسلامية طلبا للعـون، وهي مكونـة من شبكة (مفككـة) مـن إحدى عشرة محكمة أنشئت في السنوات الأخـيرة في مقديشو بتمويل من رجـال أعمال فضلوا أي نوع من القانون والنظام على الفوضى. ذكرت المحاكم أن هدفها تطبيـق الشريعة ووضع حد للفوضى والصـراع في المجتمع الصومالي. في الشهور الثلاثة الأولى مـن عام 2006، تنامى نفوذها وتأثيرها حين وجدت حلولا في الشريعة الإسلامية للقضايـا القضائيـة منفذة في كثير من الحـالات عقوبات قاسية علـى الجرائم المرتكبة للسيطرة على الفوضى. وفي سبيل التصدي لمشكلات وهموم التعليم – وجد تقرير التنمية الـذي أصدرتـه الأمم المتحدة عـام 2006 أن نسبة 16.9% فقط مـن أطفال الصومال يتلقـون التعليم – شيدت المحاكم العديد من المدارس على مدى السنوات القليلة الماضية، وهـي بادرة أيدهـا العديد من الصوماليين. المملكة العربيـة السعودية قدمت منحا أيضا لبناء المدارس والمساجد التي تروج للنسخة الوهابية من الإسلام، المشابهة لنموذج ديوباند كما ذكرنا آنفا. لكن قوبل توسع نفوذ المحاكم الإسلامية بمعارضة الولايات المتحدة.

مع نمو سلطة وشعبية المحاكم، كون بعض أمراء الحرب في مقديشو تحالفا لاستعادة السـلام ومكافحة الإرهاب عـام 2006، تلقى الدعم من الولايات المتحدة. أما استخدام أمـراء الحرب الذين يثـير السخرية لكلمة "الإرهاب" في اسـم تنظيمهم فكان دلاليا في تعبـيره: هدفهم حث الولايات المتحدة علـى دعمهم في مواجهة الجماعات الإسلامية، في حين تمثلت سياستهم المعلنة في استئصال "أعضاء القاعدة الذين تؤويهم المحاكم". ووفقا لتقرير أصدرته وكالة الصحافة الفرنسية عام 2006، التقى أمراء الحرب الصوماليون عمـلاء المخابـرات الأمريكية في جوهـار، مقر الحكومـة المؤقتة، قبيل تجهيـز التحالف

بالصواريخ ومدافع الهاون والمدافع المضادة للطائرات، التي استخدمت في القتال العنيف الـذي نشب في العاصمة في تموز/ يوليـو 2006. وكانت تلك الجولة الثانية من القتال في تلك السنة، بعد الصدامات في آذار/ مارس التي سقط ضحيتها أكثر من تسعين شخصا، معظمهم من المدنيين، ودفعت السكان إلى النزوح من ضواحي العاصمة. لكن المساعدات الأمريكيـة إلى أمـراء الحرب - وبعضهم قاتل الولايات المتحـدة عام -1993 كانت دون جـدوى، لأن المحاكـم هزمتهم شر هزيمة في معركة بعد أخرى. وفي تموز / يوليو 2006، ألحقت المحاكم الهزيمة بآخر أمراء الحرب في مقديشو.

عارضـت الولايات المتحدة المحاكم الإسلامية التي قادها الشيخ حسن ضاهر اويس، حيـث رفضت التعامل معه بسبب ارتباطاته المزعومة بالقاعدة. وقال اويس في مقابلة مع هيئـة الإذاعة البريطانية الإخبارية (حزيران / يونيـو 2006): "أنا لست إرهابيا، لكن إذا كان اتباعـي ديني وحبي للإسلام يجعلاني إرهابيا فأنا أقبل التسمية". ووفقا لجميع التقاريـر في وسائل الإعلام العالميـة، انخفضت أسعار المواد الغذائيـة بدرجة كبيرة بعد تولي الجماعات الإسلامية السلطة، وانخفض عدد السرقات وغيرها من الجرائم، وشعر الناس بـ"التفاؤل" أخيرا[24].

في منتصف تمـوز / يوليو 2006، بدأت ميليشيات المحاكم الإسلامية بالتحرك نحو بلـدة بيـدوا في الشمال، مقر الحكومـة الانتقالية الضعيفة المدعومة مـن الأمم المتحدة. فتدخلت إثيوبيا التي كانـت تؤيد الحكومة، وأرسلت جنودها لاحتلالها. وحين رأى الشيخ اويـس التدخل الأجنبي، أعلن الجهـاد على إثيوبيا، مثلما فعل الشيخ محمد عبد الله قبل قرن من الزمان.

أصبحـت الصومـال الآن بـؤرة تركيز أخـرى للصـراع العالمي، حيـث تتدخل بلدان إسلاميـة مختلفـة في الصومال لمساعـدة المحاكم الإسلاميـة ورد أي تهديد من الغرب. ووفقـا لتقريـر أصدرته مجموعـة المراقبـة المفوضة من مجلس الأمـن (2006)، فإن ارتيريـا وجيبوتـي وإيران وسوريـة وليبيا ومصـر والسعودية وحـزب الله اللبناني زودت جميعـا ميليشيـات المحاكم الإسلاميـة بالسلاح وقدمت لهـا التدريب. ويقـال إن إيران أرسلـت ثلاث شحنات مـن الأسلحة عام 2006 تحوي ألف مدفع رشاش وخمسة وأربعين

مـن الصواريـخ المضـادة للطائرات التي تحمـل على الكتـف. ويبدو أن المحاكـم أرسلت سبعمئـة صومالي لقتال إسرائيـل إلى جانب حزب الله خلال غزوها لبنان في صيف عام 2006. أمـا الأساليـب التكتيكية التي تستخدمها الميليشيـات الإسلامية في أجزاء أخرى مـن العالم فقد انتقلت أيضـا إلى الصومال، حيث استهدفت عملية اغتيال انتحارية عبد الحي يوسف أحمد، رئيس الحكومة المؤقتة التي تدعمها الأمم المتحدة في أيلول/ سبتمبر 2006. واستهدفتـه عملية أخرى في تشرين الثـاني/ نوفمبر، وكانت أول عملية انتحارية تقـوم بها امـرأة في الصومال. في أواخر كانـون الأول/ ديسمبر 2006، اجتاحت القوات الإثيوبيـة وجنـود الحكومـة المؤقتة الصومـال - بدعم من الولايات المتحـدة - في مسعى لإسقاط المحاكم الإسلامية والوصول بسرعة إلى مقديشو. وبفضل القاذفات والدبابات، اكتسحت القوات الإثيوبية معاقل المحاكم بسرعة، فهرب مقاتلوها إلى المناطق الريفية أو تسللـوا عبر الحـدود إلى كينيا. ومثلما لجأ الطالبان إلى العمل السري وتابعوا القتال بعد أن أطاحتهـم القوات الأمريكية، امتزجـت عناصر المحاكم في المجتمعات المحلية وهددت بشـن حرب عصابات على الحكومـة المؤقتة والإثيوبيين وأية قـوة أجنبية أخرى يمكن أن تتدخل في الشؤون الصومالية.

بدأت الضربات الجوية الأمريكية الموجهة إلى الجماعات الإسلامية في كانون الثاني/ يناير 2006 وسط اتهامات جديدة بوجود صلات بين المحاكم الإسلامية والقاعدة، وهذا فضـح تورط القوة العظمى أمام الملأ. وسرعان مـا ذكرت منظمة "اوكسفام" أن أعدادا كبـيرة مـن البدو الأبرياء لقوا حتفهـم، وهذا أدى إلى حالة من الهلـع وعدم اليقين[25]. ومـع الغارات الجويـة الأمريكية، قامت البحريـة الأمريكية بدوريات علـى سواحل شرق إفريقيا، وبذلك فتحت الولايات المتحدة، الغارقة في مستنقع المجتمعات القبلية في العراق وأفغانستـان، جبهة حربية جديدة، مما هدد بتكـرار حادثة "سقوط حوامة بلاك هوك" الكارثية (1993). ومنذ بداية عام 2007، بقي الوضع في المنطقة في حالة صعبة ومعقدة من الغموض وعدم اليقين.

تؤكـد اتجاهات الأحداث في الصومال تلك الأدلـة الظاهرة في المجتمعات الإسلامية الأخـرى. فدعم أمريـكا لأمراء الحـرب و"العلمانيين" مهما بهظ الثمـن في حربها على

القيـادات الإسلاميـة أدى إلى انتشار حالة مـن الاستياء والعنف وعـدم الاستقرار على أوسع نطاق. البحث الميداني الذي أجراه فرانكي دفعه لاستخلاص ما يلي:

الصومـال مثال معبر علـى جاذبية نموذج ديوباند. وأحسب أننـا لو تمكنا من توزيع الاستبيانات في الصومال، فإن العديد من المبحوثين سوف يؤكدون "العودة إلى الإسلام" بوصفها حلا لمشكلاتهم إضافة إلى استبعاد الغرب. لكن، وعلى شاكلة العديد من المسلمين الآخرين الذين قابلناهم في أجزاء أخرى من العالم، قال الصوماليون والكينيون من ذوي الأصول الصومالية الذين تحدثت معهم في نيروبي إنهم يريدون إقامة الصلات والروابط مع المسيحيين والغربيين، برغم معارضتهم للسياسة الخارجية الأمريكية.

يبـدو أن الإسلام في الصومال في الوقت الراهنعموما - يستعيد نموذج أجمر وروحه الاستيعابية القابلة بالآخر. أجريت مقابلة مع امرأة شابة صومالية الأصل ترتدي الحجاب وتلتزم مبادئ الدين الحنيف في حي ايستلي في نيروبي، وقالت إن مثلها الأعلى هو عيسى المسيـح الذي تحبه وتجله وفقا للتقاليد الإسلامية والمسيحية معا، وهي تدرس في مدرسة مسيحية. بل سألتني هل لدي صديقة حميمة وتطوعت مازحة لملء الفراغ إن لم يكن لدي واحدة، وهذا أمر لن تفعله أبدا امرأة تتبع نموذج ديوباند. لكن إن كان للأحداث الأخيرة أي دلالة، فإن نموذج ديوباند يتعزز على ما يبدو في الصومال.

يسهـل في سياق نمـاذج أجمر وعليكره وديوباند رؤية السبـب الذي يجعل الجماعات القبليـة في العالم الإسلامي - من الصومـال إلى أفغانستان - تعتمد على نموذج ديوباند للزعامة الدينية للخروج من أوضاعها الصعبة. إذ يشعر المسلمون أن الروحانية الصوفية في نمـوذج أجمـر أو الديمقراطية البرلمانيـة في نموذج عليكره غـير ذات صلة في الوقت الذي يتعرض فيه الدين للهجـوم، ويخفق زعماؤهم، وتدمر بيوتهم بالأسلحة الأمريكية، ويضطرون إلى الفرار إلى الجبال مع ما تبقى من عائلاتهم. والرجل المطارد في مثل هذه الظروف لا يفكر بالحب الروحاني والتراحم الوجداني ولا بالحداثة والتحديث ولن يكتب رسالـة منمقة يحتـج فيها على الذبح ويبعـث بها إلى رئيس تحرير جريـدة يومية واسعة الانتشـار. بل تهجس في صـدره أفكار الانتقام والثأر واستعـادة الشرف المفقود والكرامة الجريحـة. هذه المشاعر بالضبط هي التي تتردد لدى أتبـاع نموذج ديوباند، حيث يوجد

لدى المسلم إطار مفهومي جاهز لا لاستخلاص معنى من العالم فقط بل لتغييره وإصلاحه أيضا.

نساء العالم

في دمشق، جلست هيلي وهاديا مع مجموعة من النساء السوريات لمناقشة كيف تغيرت حياتهن نتيجة للتقانة الجديدة، ووسائل الإعلام الحديثة، وترقي الثقافة في سورية. في معظم البلدان الإسلامية، هنالك فصل بين الجنسين، وعند الاختلاط نادرا ما تفصح النساء عن مشاعرهن وأفكارهن الحقيقية. لذلك وجدت من المفيد أكثر أن أرسل الفتاتين للتحدث مع النساء الأخريات.

ولأن أسرة هاديا سورية، فقد زارت فتاتين توأمين في أوائل العشرينيات من العمر (في عائلة تضم أربع شقيقات) كانت قد تعرفت بهما في الولايات المتحدة خلال الصيف. وعلى الرغم من أن شقيقتيهما لا تضعان الحجاب، إلا أن الفتاتين التوأمين قررتا لبس الحجاب وهما تدرسان في الجامعة هناك. وبدأت الفتاتان مع رفيقاتهما بحضور الدروس والمحاضرات الدينية التي تلقيها الداعيات في المساجد. القضايا المطروحة للنقاش – مثل خلود الروح ويوم الحساب – دفعت الفتاتين لمزيد من الالتزام الديني واتباع أسلوب حياتي مختلف عن معظم الفتيات الأخريات المنتميات إلى الخلفية الاجتماعية – الاقتصادية ذاتها في سورية. ومع أن الشقيقتين اللتين تكبرهما في العمر ترتديان أحدث الأزياء الغربية (خصوصا في إجازة الاستجمام في فلوريدا)، إلا أن ملابس التوأمين كانت أكثر احتشاما برغم حرارة الصيف.

حين طلبت منهما هيلي وهاديا دعوة بعض من صديقاتهن إلى البيت لإجراء مناقشة جماعية، لبست إحدى الصديقات الثماني اللاتي لبين الدعوة قميصا قصيرا أسود اللون وتنورة قصيرة، في حين بدت أخرى وكأنها خارجة للتو من متجر "غاب" الشهير بسروالها الجينز وقميصها القطني الأرجواني وسترتها القطنية (من قماش الجينز أيضا) وأقراطها الطويلة. لكن ارتدت الأخريات الحجاب والتنانير الطويلة والقمصان الفضفاضة.

أكبر أحمد مع عضو مجلس الشعب السوري محمد حبش في صلاة الجمعة بجامع الزهراء بدمشق. التقطت هذه الصورة الفريدة من الشرفة المخصصة للنساء.

بغض النظر عن الزي، رحبت جميع الفتيات بالقنوات الفضائية والإنترنت والهواتف المحمولة. وصاحت إحدى الشقيقتين التوأمين بحماس: "أحب الرئيس بشار الأسد. فقد جلب إلينا كل هذه التقانة؛ إنه مبتكر ومبدع حقا". قبل بضع سنوات فقط سمحت الحكومة السورية الاشتراكية التوجه باستخدام الإنترنت في المنازل والمدارس. وهنالك حوالي عشرين ألف مستخدم للإنترنت في البلاد عند إجراء هذا اللقاء مع الفتيات. العولمة لا يمكن إيقافها، حتى في سورية. فكل شقة سكنية – وضيعة كانت أم فخمة – لديها طبق لالتقاط المحطات الفضائية على ما يبدو، وكل عائلة – ميسورة أم فقيرة – تمتلك هاتفا نقالا. وأكدت الفتيات أنهن يشاهدن الـ"بي بي سي" و"سي ان ان" و"الجزيرة"، ويتابعن الأخبار على الإنترنت.

مع أن هؤلاء الفتيات يستخدمن أحدث التقانات، إلا أنهن يبالغن في الحذر من تأثيراتها الجانبية. علقت سوزان إحدى الفتاتين التوأمين قائلة: "مع كل هذه الثقافة الجديدة الآتية إلينا، لم يعد أحد يقرأ أو يطالع. قبل بضعة أيام أتت إحدى الزميلات في الكلية وقالت متسائلة: (ما الذي حدث لشقيقتك؟ رأيتها جالسة تقرأ كتابا!). الناس

يتصرفون وكأن هناك خطأ ما في القراءة، وكأنها شيئا خارج على المألوف والسائد. الناس ينسون الجمال الحقيقي لثقافتنا".

برأي الفتيات، لا يجني الجيل سوى أسوأ ما تقدمه التقانة وليس أفضله. وشكون من أن الشباب يتابعون الآن المواقع الإباحية على الإنترنت ويتبادلون الصور البذيئة على الهواتف النقالة. وأظهرت إحدى الفتيات لنا - وهذا أمر جديد حتى على أفراد فريقيكيف أرسل لها صبي صورة لامرأة عارية عبر وصلة لاسلكية إلى الهاتف المحمول تدعى "بلوتوث" تنقل الصور من هاتف إلى آخر.

في حين عبرت هؤلاء الفتيات عن وجهات نظر دينية مختلفة، اتفق العديد منهن على أن التقانة، مع أنها إيجابية في بعض جوانبها، تمثل تهديدا داهما لقيمهن الدينية ومجتمعهن التقليدي. ولم تساعد في نشر الإباحية بين الشباب فقط بل أغرت بـ"الكسل" وأدت إلى هدر الوقت. وسألت إحداهن هاديا غير مصدقة: "هل تعرفين أن بعض الشباب البالغين يقضون ست ساعات متواصلة على ألعاب الفيديو؟".

علقت فتاة أخرى ترتدي سروالا من الجينز وقميصا قطنيا خفيفا قائلة إن ثقافة التلفزيون الجديدة سببت ارتباكا وتشوشا لدى المراهقين بشأن "المركز الأخلاقي": "لم يعد بمقدورهم التمييز بين الصواب والخطأ. إذ يفيقون على برامج التلفزيون القادمة من الغرب وينامون عليها. أما أسلوب الحياة الذي تعرضه هذه البرامج فيتناقض تناقضا تاما مع القيم والأخلاقيات الإسلامية، لكن هؤلاء الأطفال لا يعرفون بديلا أفضل. على سبيل المثال، يشاهدون شبانا وفتيات يعيشون معا وينامون معا وكأن هذا أمر عادي".

قالت فتاة أخرى معلقة: "لم يعد للآباء سيطرة على أولادهم. من المحزن قول ذلك، لكن التلفزيون أصبح هو الوالد الجديد". أما النماذج التي يحتذى مثالها في نظر هؤلاء الشابات فتراوحت بين الشخصيات الدينية والسياسية ومقدمات البرامج الشهيرات مثل اوبرا وينفري. وحين طرحنا مزيدا من الأسئلة عن شهرة اوبرا وينفري، أجابت الفتيات إنها امرأة تتمتع بشخصية قوية ولا تتناول إلا القضايا الجديرة بالاهتمام. وعبرن عن إعجابهن ببرامجها التي دارت حول الإسلام. وقلن إنهن يتأثرن بها ويشاهدنها مرارا.

وفي الحقيقة، فإن جميع النماذج المعاصرة التي يحتذى مثالها برأيهن أتت تقريبا من مشاهدة القنوات الفضائية.

المثل الأعلى الذي ذكر مرارا وتكرارا هو داعية مصري شاب يتمتع بشخصية كاريزمية اسمه عمرو خالد. ترك عمرو خالد عمله كمحاسب ووقف نفسه للتحدث والكتابة عن الإسلام. ومن اللافت أنه المثل الأعلى الذي حاز على أكبر إجماع في البلدان التي زرناها في العالم العربي. إذ جذب هؤلاء الفتيات إليه لأنه قدم الإسلام بوصفه دين الإحسان والتراحم وأسلوبا روحيا للحياة. قالت واحدة منهن: "أسلوبه خفيف الوطأة. ولا يقدم الإسلام كمجموعة من الأوامر والنواهي مثل بعض الفقهاء والمشايخ. لقد جعلنا نحب الإسلام".

أكثر السياسيين شعبية برأيهن هما الرئيس السوري بشار الأسد، والأمين العام لحزب الله حسن نصر الله. وقلن إن بشار الأسد لم يكتف بمحاولة تحديث سورية فقط، لكنه "لم يتراجع لتخفيف حدة الضغوط الغربية". أما ما يتعلق بحسن نصر الله، فقد عبرت الفتيات عن إعجابهن ببلاغته وحماسة خطبه، التي كثيرا ما يتابعنها على شاشة تلفزيون المنار. وأعجبن على وجه الخصوص "بشجاعته في النضال في سبيل العدالة وقول الصدق دوما، حتى وإن كانت الحقيقة الصادقة تعادي الغرب". لقد عبرت هذه المجموعة من الفتيات عن الاعتزاز الوطني المعروف عن بلد عارض الولايات المتحدة طوال العقود القليلة الماضية. وفي الحقيقة، عبرن جميعا عن مشاعر مناهضة للغرب إلى حد ما.

لكن الفتاة التي ترتدي ملابس غربية (تنورة قصيرة - وإن طالت إلى ما تحت الركبة - وقميصا أسود اللون) قالت إنها لا تلتزم الإسلام كثيرا. وأضافت: "أقع في مشكلات مع الشبان"، في حين هزت زميلاتها رؤوسهن في استنكار خفي. ثم قالت: "أجد متعة في المشكلات!". فهي لا تقبل تفسيرات الإسلام المغالية في الصرامة ولا تترك فسحة لـ"الاستمتاع". لكن حتى النماذج التي يحتذى مثالها في نظرها ظلت مشابهة لتلك التي اختارتها الفتيات الأخريات: الرسول، وخديجة، وعائشة. وتساءلت هؤلاء عن المدى الذي يمكن فيه تطويع القيم الإسلامية في مواجهة هذا القدر من التغيير، وقالت غالبيتهن إن

آبائهـن يقدمن لهن النصح فيما يتعلق بالإسـلام، وإن الحجاب يساعد في الحفاظ على هويتهن.

ونظـرا لخيبة الأمل مـن تفاقم السلوك غير الأخلاقي بسبب سـوء استخدام التقانة واستـيراد الثقافة الشعبية الغربية، عملـت الفتيات بطريقة واعية ومقصودة على تنظيم تعرضهـن للتقانة. لكن لائحة النماذج المتنوعة والمتعـددة الجنسيات التي يحتذى مثالها تعكـس مدى انتشار التقانة حتى في الحياة المنضبطة في سورية. وأسفت الفتيات لأن بحر العولمـة سرعان ما يغمرهن ويفقدن قيـم وتقاليد ثقافتهن التي اعتنقها العرب منذ آلاف السنين. وعلى الرغم من انتقادهن لتدفق التقانة والثقافة من الغرب، إلا أنهن وجدن أن مـن الصعب مقاومة العولمة. ولذلك، يبحثن عن بديـل، مشابه لنموذج عليكره، يمكن أن يحافظ على القيم الإسلامية ويوالفها مع أفضل ما في الثقافة الغربية.

تمكنـا أيضـا مـن مقابلة وزيرة المغتربـين بثينة شعبـان، وهي شخصيـة معروفة في الحكومة، تتميز بأناقتها وأسلوبها المؤثر وكلامها البليغ وإشارات يديها المعبرة وضحكتها الساحرة. وحين سألناها عن المرأة في الإسلام، أجابت: "لا أظن أن النساء الغربيات أكثر تحررا وانفتاحا من النساء المسلمات". ولتوضيح فكرتها تذكرت محاضرة لها في الولايات المتحدة، توقفت خلالها في منتصفها وغطت شعرها بحجاب، ثم تابعت المحاضرة: "كنت أحـاول إثبـات أن الحجـاب لا يمثـل أي فـارق. فعقلـي يظـل علـى حالـه. وعلـى أولئك الذيـن يتحدثون باسم الإسلام التمسك بروح القرآن". وهـي أيضا تعد خديجة وعائشة نموذجين يحتذى مثالهما.

خـلال إقامتنا في إسلام أباد، عبرت النساء عن الاعتـزاز ذاته بالإسلام. في إحدى الأمسيـات حضرنا مأدبة غداء كبرى أقيمت في الهـواء الطلق مع كوكبة من نخبة المدينة كضيـوف علـى عائلة أسد ونجاة شـاه، التي تتمتع بمكانة اجتماعية بـارزة. ونظرا لكثرة المدعوين نصبت خيمة لاستيعابهم. وبعد الوجبة الباكستانية الشهية، طلب مني مضيفي التحدث عن عملي ورحلاتي والإجابة عن الأسئلة.

سألـت النسـاء الحاضرات – اللاتي مثلن قرابة نصـف الضيوف البالغ عددهم مئة – عـن دور المرأة في الإسـلام، وبدوْنَ متحـررات ومسايرات للحداثـة. كان نصفهن من

المحجبـات وبعضهن منقبات لا يظهر من وجوههن سوى العينـين. اشتكت إحداهن فيما بعد من أن أحدا لم يتعرفها. وكان من الصعب ذلك لأن الحجاب يغطيها من قمة الرأس إلى أخمصـ القـدم. فقد درست في كلية جيسوس ومـاري في موري، وهي بلدة تقع شمال إسـلام أباد واشتهـرت بتعليم الإنكليزية للبنات والعيش وفقـا لأسلوب الحياة الغربي مع الاحتفاظ بالهوية الإسلامية والباكستانية.

أثـار اهتمامي طوال النقاش بل صدمني نموذج ديوباند البازغ في عاصمة الأمة التي أسسها محمد علي جناح، التجسيد الحي لنموذج عليكره. وهذا يحدث تحت سمع وبصر الرئيس مشرف، ويكذب جهـوده ومساعيه لتشجيع وترويج "الاعتدال المتنور". في الوقت ذاتـه، أصـرت النساء في السـؤال - أو في إلقـاء محاضرة عليعن دور المـرأة في الإسلام وحرمانها حقوقها في المجتمع.

حـين دعـوت هاديا للتعليق علـى المسألة، فـازت بتأييد النساء لأنهـا ترتدي حجابها وتتماهـى معهن. وحين طلب من ابنتي نفيس (التي قدمت مع زينات إلى باكستان لتكونا معي) أن تعطي كلمتها النهائية، قالت: "أرى النساء المسلمات يرتدين الحجاب في الولايات المتحـدة وأشعر بالاعتزاز والفخر لاستعدادهـن للتماهي مع دينهن. في بعض الأحيان قد يكـون ذلك صعبا عليهن. وربما لو امتلكت أنـا الشجاعة لفعلت مثلهن". وأخبرتني بعض النساء فيما بعد أن تعليق ابنتي كان الأفضل في تلك الأمسية.

خـلال مناقشاتنـا طوال الأسبـوع، وجدنا أن أحـد محفزات التغيير عالمـة إسلامية شهيرة تدعى فرحات هاشمي، التي تتحدث عن الإسلام بأسلوب عقلاني ورقيق ومنطقي. أمـا أمينـة أحمد هوتي، التي درست دور الإسلام وتأثـيره في نساء باكستان، فتلاحظ أن أنشطـة هاشمـي تمارس تأثـيرا نافذا في نسـاء القبائل وترسخ روابـط جامعة مع حركة إحيـاء الإسلام الواسعة عبر فروع المنظمة التي أسستها تحت اسم "معهد الهدى الدولي للتعليم الإسلامي للمرأة" في إسلام أباد:

اعتمادا على التمويل الخاص والأهلي، قد تقوم مراكز "الهدى" في المنازل أو المدارس أو المدارس الدينيـة.. (منذ مدة قريبة، تحولـت المدرسة الدينية في مـاردان إلى مركز لأنشطـة "الهدى"، حيـث يدرس فيها سيد وسيـدة، وكلاهما طبيب تـدرب في بريطانيا

والولايـات المتحدة). وحين سألت عـن المذهب الإسلامي الذي تعتنقـه "الهدى" جاءني الجـواب دوما "الإسـلام". وقالت الطالبات إنهن التحقن بالمدرسـة لتعلم معاني القرآن والسنـة. وحين سألت إحدى الخريجات هل تتبع حركة المرأة في منظمة "الهدى" المذهب الوهابـي أم نمـوذج ديوباند، أجابت: "الهـدى تدرس القرآن والسنـة ولا تتبع أي مذهب محدد. وتدعو نفسها مدرسة إسلامية وفقا لما كانت الحال خلال عهد النبي صلى الله عليه وسلم". وتتبع مديرة المنظمة قـول النبي: "الصحابة كالنجوم فبأيهم اقتدينا اهتدينا". وهي في الحقيقة تجاهد أولئك الذين يدعون الإسلام وهم أبعد ما يكونون عنه.

ترتـدي خريجات "الهـدى" العباءة السوداء، وهـي لباس عربي الأصـل لا بشتوني، كعلامـة دالة علـى استكمال سنة من الدراسـة. والأهم أن الدكتـورة هاشمي تشدد على أن النسـاء قـادرات على تغيير المجتمع، وتلقـي دروسها باللغة الأوردية: "نموذج المرأة" في محيطهـا العائلي والاجتماعي "لا يشابه عـود الثقاب بل مضخة للوقود المشتعل - ابنة وشقيقة وزوجة ووالدة، ويمكن أن تنتشر رسالتها كالنار في الهشيم"[26].

حـين كان فـاروق ليغاري رئيسـا لباكستان، رعـت زوجته فرحات هاشمـي، وهذا ما أضـاف إلى شهرتها. وخلافا لرجـال الدين التقليديين في باكستان، الذين اعتادوا إطالة لحاهـم واستخدام أسلوب الترهيـب، تبدو فرحات بديلا جذابا لتعلـم الإسلام. ويمكن مقارنة شهرتها في باكستان بشهرة عمرو خالد في العالم العربي. فكلاهما يمثل استجابات إسلامية صحيحة للعولمة، ويراه أتباعه أقرب تجسيد لنموذج عليكره.

عندمـا كنـا في كوالالمبور، سمعت أنا وهيلي صدى آراء هـؤلاء الفتيات خلال لقاء مع نسـاء مهنيـات أكبر عمرا، ومنهن محاميـات وناشطات اجتماعيـات استخدمتهن غالبا المنظمات الأهلية (غير الحكومية) والمسؤولون الحكوميون. وفي حين أن بعضهن محجبات وبعضهن الآخر سافرات، إلا أنهن جميعا من الإسلاميات الملتزمات بالدين. وعندما طلبنا منهـن تسميـة النماذج التي يحتذى مثالها من الماضي، وضعـن النبي على رأس القائمة، ثم خديجة وفاطمة وعائشة. وكن تقليديات من جوانب عديدة، مع أنهن أكثر مشاركة في الحيـاة العامة والأكاديمية من النساء اللاتـي قابلناهن في باكستان. فلباسهن، وآراؤهن فيمـا يتعلـق بالثقافة ودور المرأة في المجتمـع والمسائل المتعلقة بالحشمـة تتسق جميعا مع

الإسلام. وبرأي هيلي، يبدو أنهن "أكثر توكيدا وثقة بهويتهن الإسلامية وأكثر ارتياحا في دورهن في الحياة العامة. وما يجعل ماليزيا حالة خاصة هو أن.. نساءها، خلافا للنساء في البلدان الأخرى اللاتي يكافحن للعمل والتمسك بالإسلام التقليدي، أكثر قدرة على دمج حياتهن الدينية والمهنية والفوز بقبول واسع النطاق من المجتمع".

في تركيا، التي تشبه ماليزيا من حيث كونها دولة إسلامية عصرية لها اقتصاد حديث، يحظر على المحجبات المشاركة في الحياة العامة. فقد طردت ميري في كافاسكي من البرلمان لأنها رفضت خلع حجابها خلال الجلسات وهي تعيش الآن في واشنطن. ومع أن النساء في البلدين يقبلن بحماس ونشاط التحديات الجديدة المرتبطة بالحياة المهنية في الدولة الحديثة، إلا أن نساء ماليزيا يشعرن بأنهن قادرات على استمداد القوة من دينهن التقليدي أكثر من النسوة التركيات.

جميع النساء تقريبا اللاتي التقينا بهن في العالم الإسلامي وافقن على أن حياتهن الشخصية تختلف عن حياة أمهاتهن. وشكت إحدى النساء في جاكرتا أن ذهابها إلى العمل صباحا والعودة منه مساء (وهما رحلتان تستغرقان ساعة من الزمن)، ويوم العمل الطويل، لا يتركان لها وقتا لدينها وأسرتها، لكنها تعتقد أن الإسلام ما يزال يوفر خطوطا إرشادية مهمة تهدي النساء وتبين لهن كيف يعشن حياتهن.

اختارت النساء في ماليزيا بالإجماع خديجة وفاطمة وعائشة نماذج يحتذى مثالها، وأشرن إلى تأثير النساء الثلاث في حياتهن، وكان هذا واضحا في أسلوب حياتهن المتوازن. وأكدت امرأة في التاسعة والعشرين أنها اختارت خديجة وعائشة بسبب ما تتمتعان به من "قوة وذكاء وشجاعة". واختارت امرأة تركية في منتصف العمر خديجة وعائشة لأنهما "تجسدان مثالا يعلمنا الإسلام وممارسته في الحياة اليومية وبأفضل طريقة. فقد ساهمت كل منهما مساهمة مهمة في الإسلام".

بدت النساء اللاتي التقينا بهن خلال رحلتنا مستقلات، وواعيات تماما بالعالم الذي وجدن أنفسهن فيه، بل واثقات من أنفسهن. وبعيدات كل البعد عن المرأة المنمطة البائسة والمقهورة التي صورتها وسائل الإعلام الغربية. أكد هذا الانطباع الأعضاء الذكور والإناث في فريقي. بل وجد جوناثان وفرانكي أنهن "جسورات وجريئات" مثلما يؤكد التعليق التالي الذي كتبه جوناثان:

بعض الطالبات اقتربن مني بعد محاضرة في إحدى جامعات كوالالمبور.. وحاصرتني جماعة منهن أردن معرفة كل شيء عن أمريكا.. لماذا قطعنا كل هذه المسافة للقائهن، وما هو موضوع بحثنا. تحدثن عن أنفسهن وأردن تفسير وشرح الإسلام لي. كن جريئات بل عدائيات قليلا ورغبن بمعرفة وجهة نظر الأمريكيين بهن والأسباب الكامنة وراء بعض قرارات سياستنا الخارجية. لكنهن كن أيضا مهذبات جدا والتقطن الصور التذكارية في نهاية المطاف. أتذكر أنني قلت في نفسي.. ليست هذه هي الصورة التي قدت عادة في الغرب عن المرأة المسلمة. فقد تمتعن بالذكاء وحب الاطلاع والطلاقة في الحديث. ولم يكن خاضعات ومستكينات أجبرن على خدمة أزواجهن. فهن متعلمات وأمامهن مستقبل يسمح بتحقيق أي حلم راودهن. في ماليزيا العديد من عوامل نموذج عليكره، وهؤلاء النساء يجسدن صورة رائعة للمرأة المسلمة المعاصرة الملتزمة بدينها لكن دون أن تقطع صلاتها بالعالم المعولم.

لاحظت أنا وفرانكيأن النساء في كل بلد زرناه (خصوصا في الأردن) تمتعن بالجرأة والجسارة. فبعد كل لقاء عام جمعنا بهن، كانت تتقدم إلينا جماعة منهن للحديث عن السياسة الخارجية الأمريكية. كن على درجة كبيرة من الوعي والمعرفة والتهذيب والدماثة دوما.. وعلى استعداد لتقديم الحجج المقنعة، حتى لو كانت انتقادا لنا أو لأمريكا.

النساء البارزات اللاتي شغلن، أو يشغلن، مناصب عامة مهمة يمثلن مصدر إلهام لغيرهن. في قطر، رشحت غالبية النساء زوجة أمير قطر الشيخة موزه، قدوة لهن بسبب جهودها الدؤوبة لتحسين مستوى تعليم المرأة وتعزيز الحياة العائلية. فبفضل دعمها ومساعدتها، تمثل الطالبات ثلثي عدد طلاب الجامعات القطرية، وفزن بأغلبية الجوائز الأكاديمية. ورشحت طالبة في السابعة عشرة من العمر في المدينة التعليمية في قطر الشيخة موزه مثلا أعلى لأنها "تعمل على تحسين الأوضاع والحفاظ على التقاليد التراثية، حتى الحجاب. فقد جعلتنا نشعر بالاعتزاز والفخر". واختارتها موظفة في الثالثة والعشرين تعمل في وزارة الخارجية القطرية بسبب "معرفتها العميقة، وتشجيعها الإسلام، وحبها لإرشاد الآخرين لتعم الفائدة على المجتمع". وعلى الرغم من التأثير الوهابي القوي في المجتمع، توسع الشيخة موزه حدود وآفاق مساهمة المرأة في الحياة العامة، وظهرت على

شاشة تلفزيون (CBC) عبر برنامج "60 دقيقة" وسمحت بالتقاط الصور لها. ومع ذلك، ما زالت تعد نموذجا للمرأة في الإسلام.

وفرت بنظير بوتو، أول امرأة تشغل منصب رئاسة الوزراء في باكستان والعالم الإسلامي، رؤى مثيرة تبين خياراتها الشخصية وتعبر عن كيفية اختيار النساء المسلمات للمثل الأعلى. ففي رأيها، كانت نساء النبي مصدرا للإلهام، خصوصا خديجة وعائشة وفاطمة – وهي تضيف لقب السيدة إلى كل منهن تعبيرا عن الاحترام والإجلال. لكنها تشعر بصلة خاصة مع فاطمة بنت النبي المحببة إلى قلبه. أضافت بنظير بلهف وشوق: "واجهت أياما عصيبة. لقد فقدت أنا أيضا والدي ولما أتجاوز الخامسة والعشرين". لكن المأساة ليست السبب الذي جذبها إلى نساء النبي. ذكرت أيضا زينب أخت الحسين، حفيد النبي وشهيد كربلاء. قالت بنظير ملمحة ربما إلى قدرتها على مواجهة حكام باكستان الديكتاتوريين من العسكر: "دخلت (زينب) إلى بلاط يزيد وواجهت الغاصب دون وجل".

كانت بنظير بحاجة إلى القوة. وذكرتني بأنها أول امرأة مسلمة تشغل منصب رئاسة الوزراء في التاريخ، وأن مكان المرأة قبل تعيينها كان البيت أو القبر. وفي الحقيقة، ما زالت مقولة مكان المرأة في البيت أو القبر شائعة ومنتشرة في أرياف باكستان. أما النماذج الأخرى التي يحتذى مثالها في نظرها فليست إسلامية. فهي تحب المرأة القوية المؤثرة التي تتحدى المجتمع: جان دارك (الفرنسية)، واليزابيث الأولى (الإنكليزية) وانديرا غاندي (الهندية).

تجسد بنظير بوتو نموذج عليكره للمرأة. فلأنها تخرجت في كلية رادكليف وجامعة اكسفورد وكلية ماري في موري (بباكستان)، تمكنت من جمع وموالفة الأفكار الغربية عن الديمقراطية وحقوق المرأة وحقوق الأقليات مع مثلها الإسلامية والهوية الوطنية. ولذلك فإن نماذجها التي يحتذى مثالها يجب أن تجسد قيما تتجاوز قيم الغرب، أي مُثل مجتمعها ودينها، التي تشترك فيها النساء في شتى أرجاء العالم الإسلامي. المثل الأعلى في رأي بنظير بوتو هو "الإنسان المثالي"، محمد نبي الإسلام وهي تضيف – غريزيا – عبارة "صلى الله عليه وسلم" كلما نطقت باسمه. المسلمون في جنوب آسيا يعدون – على

شاكلة بوتو - محمدا "حبيب الله"، إضافة إلى أنه "رحمة للعالمين" كما ورد في القرآن. وهو يستحضر في عقولهم وصدورهم مشاعر جياشة من الحب والتوقير والإجلال.

يبدو في الصورة أكبر أحمد وهيلي ولدت، مع أحد مسؤولي السفارة الباكستانية، وبنظير بوتو، أول رئيسة وزراء في العالم الإسلامي، يحضرون المنتدى العالمي الأمريكي الإسلامي لتشجيع الفهم المتبادل بين الإسلام والغرب. المناسبة كانت برعاية معهد بروكينغز والحكومة القطرية.

بعد عدة شهور من العودة إلى الولايات المتحدة، تلقيت الرسالة التالية بالبريد الإلكتروني من شخص لا أعرفه. المرسل كان طالبة تكتب من كردستان في الجزء الغربي من إيران. وأكدت فيها كل شيء شاهدته في الرحلة الميدانية: تأثير العولمة في المجتمع الإسلامي، حتى في الأماكن النائية، والرغبة في التغيير والتعليم، خصوصا بين النساء.

التاريخ: 13/9/2006

الساعة: 3:45 بعد الظهر

الموضوع: إلى الأستاذ العزيز أكبر أحمد/ من طالبة كردية تدرس علم الاجتماع/ رسالة مستعجلة.

عزيزي البروفسور أكبر أحمد، مرحبا

آمل أن تكون بخير، وأرجو أن تقبل أحر التحيات، اسمي نيغار أحمدي، وأنا طالبة أحضر للحصول على شهادة الماجستير في علم الاجتماع من جامعة كردستان في مدينة ساناندا ج،

بإيـران. أود أن أطلـب مساعدتك، وسأكون شاكرة ومدينة لـك إن ساعدتني في أطروحتي، وأنا مهتمـة كثيرا وبحاجـة ماسة لأعمالك القيمة فيما يتعلق بما بعـد الحداثة والإسلام، والإسلام، والعولمة؛

كتابـك هـذا مفضل عندي وأطمـح إلى الحصول عليـه. وسيكون لطفا منـك أن تبعث إلي بنسخـة منـه، حتى لو كانت قديمة وممزقة. هل تساعدني إن أمكـن؟ لن أنسى ما حييت لطفك ومعونتـك العظيمة. فـإن تكرمت ووافقت علـى مساعدتي سوف أرسل عنـواني. الشكر الجزيل لك.

مع التحيات

الطالبة المخلصة، نيغار

وكما شرح هذا الفصل ووضح، يجسد الإسلام نموذجا يحتذى مثاله في المجتمع، لكن العادات والتقاليد القبلية تتحدى هذا المثال، وتواجهه وتتداخل معه أحيانا. ولذلك، هنالك توتـر متواصـل في العقل الإسلامي بين المفهـوم المصوغ حسب الأسلـوب الشائع للمجتمع المثـالي وحقائق ووقائع العادات القاسية التي لا تعـرف الرحمة والتقاليد المحلية الضيقة الأفـق. أما السـؤال القابع في صميم الصـراع لتعريف وتحديد المجتمـع الإسلامي الذي يثـير اهتمام المصلحـين الإسلاميين فهو كيفية مواءمة المثـال والواقع. فقد جرى تجاهل أو إسـاءة فهم هذه النقطة في خضم الصراع الأكبر بين الحضارتين الغربية والإسلامية الذي يخيم بظلاله اليوم على كل ما عداه.

obeikandl.com